



دكتور محمد جلاء إدريس

الشخصية اليهودية

دراسة أدبيّة مقارنة

من قضايا الأدب المقارن

دراسة الموقف

الشخصية اليهودية

دراسة أدبية مقارنة

بين روايتي ايفانهو لسكوت وأحمد وداود لفتحي غانم

الدكتور محمد جلاء إدريس

١٤١٤هـ/١٩٩٣م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



الناشر :

عين للدراســـات والبحوث الانســـانية والاجتـماعيــة

ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

٦ شارع يوسف فهمي ـ اسباتس ـ الهرم ـ تليفون: ٣٨٣٢٥٢٩

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

إهداء

إلى من شاركتني رحلة الحياة،

وتشاركني رحلة العلم،،

إلى زوجتي.

أهدي هذا الكتاب، راجياً لها إتمام

مشروعها العلمي القيم بكل توفيق ونجاح .

الفهرس

مقدمة

تدخل دراسة النماذج الشخصية ضمن دراسة الموقف ـ موقف كاتب ما من شعب من الشعوب ـ والذى يعد مجالاً خصباً من مجالات الأدب المقارن، وقد اهتم الفرنسيون بالشخصية الانجليزية وكذلك بالشخصية الألمانية والايطالية والاسبانية، كما قام الانجليز بدراسة الشخصية اليهودية فى أدبهم.

وعلى الرغم من أن الشخصية اليهودية تمثل علامة بارزة فى التاريخ العربى قديمه وحديثه» إلا أن الاهتمام بدراستها من منظور أدبى لم يلق اهتماماً يعادل ما تثيره هذه الشخصية فى الواقع العربى.

ومن هذا المنطلق، رأيت أن أقوم بدراسة أدبية مقارنة لهذه الشخصية فى أدبين عالميين هما الأدب الانجليزى والأدب العربى بهدف تعميق فهم هذه الشخصية وادراك كوامنها وتحديد ملامحها.

وليس بالضرورة أن تكون ملامح هذه الشخصية عند كاتب معين هى القول الفصل فى رسم صورة اليهودى، اذ قد تتفاوت السمات بين شخص لآخر، كما يتفاوت التعبير الأدبى وفقاً لعمق تجربة الكاتب.

وإذ أقدم هذا العمل، لا أسعى هنا إلى التعبير عن موقفى من هذه الشخصية التى دخلت مجال اهتمامى منذ ما يقرب من ربع قرن فهذا مجال آخر وإنما أعرض هنا لوجهات نظر ومواقف كاتبين بارزين فى أدبين مختلفين، كتطبيق لأحد مجالات واهتمامات علم الأدب المقارن.

ولما كان مثل هذه الدراسة يندرج كما أسلفت تحت دراسة موقف كُتّاب بعينهم من أمثال السير ولتر سكوت وفتحى غانم من الشخصية اليهودية، وهو ما عده

فان يتجم من موضوعات واهتمامات الأدب المقارن[١]، واعتبره الدكتور محمد غنيمى هلال[٢] من العوامل التى تساعد على فهم الشعوب بعضها لبعض وعلى إدراك كل منها للآخر إدراكاً يقوم على أسس صحيحة، فقد كان من الضرورى أن أقدم بايجاز لعلم الأدب المقارن موضحاً نشأته وتعريفاته ومجالات اهتمامه قبل الولوج إلى جوهر دراستنا هذه.

وإذا كان الباحثون فى الأدب الإنجليزى قد سبقونا فى استجلاء جوانب الشخصية اليهودية فى هذا الأدب[٣] فإن المهتمين بأدبنا العربى مازالوا غير مكترثين بمثل هذه الدراسات.

وتأتى هذه الدراسة لا لتسد هذا النقص كله، فهذا يتطلب تضافر جهود متعددة وإنما لتساهم فى تضييق الفجوة فى مثل هذه الدراسات من خلال دراسة الشخصية اليهودية فى عملين أدبيين رائدين فى مجال معالجة هذه الشخصية فى الأدبين الانجليزى والعربى وبهدف الوقوف على ما يمكن أن نطلق عليه «الثوابت» فى الشخصية اليهودية وهذا بدوره يقدم لنا دليلاً ومرشداً للتعامل مع هذه الشخصية فى ظل الأوضاع الراهنة، فدراسة الصورة التى يقدمها الأدب لشخصية من الشخصيات يعول عليها كثيراً فى معرفة خصائص سلوك تلك الشخصية فى واقع الحياة ومن ثم يمكن التنبؤ باستجاباتها وردود أفعالها تجاه الأحداث، وهذا ما نحتاج إليه بالفعل تجاه الشخصية اليهودية.

أما النموذجان اللذان اعتمدت عليهما الدراسة فهما الرواية الإنجليزية ايفانهو

---

(١) فان يتجم الأدب المقارن ، ترجمة سامى الدروبى، دار الفكر العربى ، القاهرة ص١١٠ .

(٢) محمد غنيمى هلال، الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط ٣، ١٩٧٧، ص١٠٣ .

(٣) انظر علي سبيل المثال : ـ

Fish, H., The Dual Image : The figure of the Jew in English and American Litereture, London, 1971 and Montague , F., The Jew in the Litereture of England, Philadelphia, 1939.

للسير ولتر سكوت، والرواية العربية أحمد وداود لفتحى غانم.

ولهذا الإختيار مبرراته لدى الباحث.

فالبرغم من وجود اختلافات واضحة فى الشكل العام للنموذجين، إذ أن صفحات الرواية الأولى تزيد على الأربعمائة، بينما لا تزيد الثانية عن مائة وأربعين.

وسكوت كتب روايته عام ١٨٢٠، بينما جاءت رواية فتحى غانم عام ١٩٨٦.

إلا أن المتفحص للروايتين سيجد أن بينهما نقاط التقاء واضحة على النحو التالى:

أولا : تبين كلتا الروايتين اتجاه الشعوب المحيطة باليهود إزاء الشخصية اليهودية. الأولى تعرض موقف النورمانديين والساكسون، والثانية تعالج الموقف العربى.

ثانيا : تعكس كل رواية الوجود اليهودى فى محيطها كمشكلة. فاليهود فى عصر ايفانهو اشتهروا بالاقراض والربا واستغلال الشعوب المسيحية آنذاك بالإضافة إلى تقوقعهم وانعزالهم ونفور الأغيار منهم. واليهود فى عصر أحمد وداود قد احتلوا أرضًا، وذبحوا شعباً.

ثالثا : تقدم لنا رواية ايفانهو مجموعة من الخصائص والسمات التى تميز الشخصية اليهودية فى ذلك العصر، كما ترسم لنا رواية أحمد وداود كذلك سمات هذه الشخصية فى هذا القرن.

واختلاف زمن الروايتين : كتابةً، واحداثاً، هو هدف مقصود فى هذه الدراسة، لأنه يعطينا مؤشراً واضحاً على أن هناك سمات، وخصائص يهودية

بحتة، لا تتغير بتغير العصر والزمان، ومن ثم يمكننا وضعها فى الإعتبار فى تعاملنا المعاصر معها.

وثمة قضية اخرى يجب أن نشير إليها وهى ضرورة أن نوضح مفهوم الشخصية أولا، ثم هل هناك ما يمكن أن يسمى بالشخصية اليهودية على غرار النماذج القومية الأخرى؟.

أما الشخصية فهى وحدة متكاملة من الصفات تميز الفرد عن غيره، وهى ليست قاصرة على الصفات الاجتماعية والخلقية كما ليست قاصرة على المزاج Temperament وإنما هى كما قلنا وحدة متكاملة تشمل الصفات المكتسبة والوراثية.

وللشخصية سمات Traits مميزة لها، والسمة هى أية خاصية يتباين الأفراد فيها، وهى أيضاً صفة للسلوك تتميز بقدر من الثبات والاستمرار ومن ثم يمكن قياسها وملاحظتها. فالجبن أو البخل أو العدوانية هى سمات للشخصية. ومن السمات ما هو فطرى كالسمات المزاجية ومنها ما هو مكتسب كالسمات الاجتماعية. ونحن إذْ ندرس سمات شخصية معينة إنما ندرس السلوك الذى يدل على السمة، فالسمات ذاتها لا تلاحظ [١].

وقد جاء عالم الانثروبولوجيا الأمريكى رالف لنتون بمصطلح «الشخصية الأساسية» ويعنى بها مجموعة ملامح الشخصية المشتركة بين جميع أفراد مجتمع معين، وهو يرى أن هذه الملامح ترجع إلى التربية أكثر من أى عامل آخر» وذهب أحد علماء الأمراض العقلية وهو كاردنر إلى أن «الشخصية الانسانية» تختلف باختلاف الظروف التى يجب أن تتلاءم معها [٢].

(١) عباس محمود عوض ، مدخل إلى الأسس النفسية والفسيولوجية للسلوك ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ ، ص ٣٥٥ .

(٢) سامى الدروبى ، علم الطباع ، المدرسة الفرنسية ، دار المعارف ، ١٩٦١ ص ٢٥٧.

ومما سبق يمكننا أن نستنتج أن ملامح أو سمات شخصية من الشخصيات تحددها عوامل بيئية وأخرى وراثية، الأولى مكتسبة والثانية فطرية يطلق عليها رونيه لوسين استاذ الفلسفة فى السوربون مصطلح «الطبع» ويعنى به «ما يملكه الفرد حصيلة للوراثات التى تصالبت فيه (من أبويه وأجداده القريبين والبعيدين) وعلى هذا يكون كل ما فى الطبع فطرياً ولد مع الفرد» [١].

وقد أكد آخرون على أن كل الصفات السلوكية ذات التباين المتصل - بما فى ذلك الإجرامية والسلوكية المضادة للمجتمع» محكومة بالتركيب الوراثى والبيئة والتداخل بينهما [٢].

ونعود للشق الثانى من السؤال الذى طرحناه فى البداية حول وجود شخصية يهودية محددة الملامح على غرار الشخصيات القومية الأخرى.

والإجابة على مثل هذه المسألة نجدها بوضوح فى الدراسات الأدبية التى تمت حول هذه الشخصية.

حقاً لا تشكل الجغرافيا جزءاً من هذه الشخصية، ولم تكن كذلك سمة من سمات تراثها، فالحديث عن بيئة مشتركة لهذه الشخصية هو أمر صعب إثباته، فاليهود منتشرون فى بيئات متباينة فى شتى أنحاء المعمورة ومن ثم قد تكون الصفات والسمات المكتسبة لدى الشخصية اليهودية متعددة البيئات، ولكن كما سبق وأن أشرنا أن الشخصية تضم بين قسماتها إلى جان هذه المكتسبات، ملامح فطرية ووراثية سنجدها ملازمة للشخصية اليهودية سواء كانت فى بيئة أوربية أم عربية، معاصرة أم قديمة.

---

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٤) لى اريان ، بيتر ، أ . بارسونز ، وراثة وتطور السلوك ، دار ماكجروهيل للنشر ، ترجمة أحمد شوقى حسن ورمزى على العدوى ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٤٥٤.

وفى الدراسة التى قام بها الدكتور رشاد عبد الله الشامى عن الشخصية اليهودية فى أدب احسان عبد القدوس ـ وهى دراسة جديرة بالاهتمام والتقدير لأنها تأتى كأول عمل فى هذا الميدان فى المكتبة العربية ـ يعالج الباحث قضية دراسة الشخصية والهوية ويفرق بينهما باعتبار أن الأولى تتعلق برؤية الذات كما تتعلق برؤية الآخر بينما تتعلق الثانية برؤية الذات أكثر منها تعلقاً برؤية الآخر، وإذا كان يقر بصعوبة الفصل عند التعرض للشخصية اليهودية بين ما يمكن إن يتعلق بمفهوم الشخصية ومفهوم الهوية فإنه يصف الأول بالتغير، والثانى بالثبات[١].

فهو يعنى بالشخصية أنماط السلوك المحددة بشروط الحياة المادية وأشكال العلاقات الاجتماعية القائمة، وتأثير ذلك على سيكولوجية الفرد وسلوكه، كما يعنى بالهوية مجموعة المؤثرات الثابتة المتمثلة فى المعتقدات الدينية والخبرات التاريخية والمفاهيم التراثية التى تؤدى إلى خلق مجموعة من الأشخاص يشتركون فى سمات واسعة مع غيرهم...[٢].

وعلى ضوء تعريفاتنا السابقة للشخصية نجد أنه لا ضرورة للفصل بين الشخصية والهوية، لأن تعريف الشخصية لدى علماء النفس يشمل الجانب المكتسب والجانب الفطرى الوراثى والذى فصله الدكتور الشامى تحت مسمى الهوية، ويؤكد ذلك التعريف الذى ساقه لنا عن عالم النفس الامريكى دانيال ميللر للهوية حيث قال انها : «أنماط السمات التى يمكن تميزها واستنتاجها والتى تميز إنساناً فى نظر نفسه وفى نظر الآخرين» [٣].

(١) رشاد عبد الله ، الشخصية اليهودية فى أدب احسان عبد القدوس ، كتاب الهلال، ٤٩٦، ابريل ١٩٩٢، ص ٥٧-٥٨.

(٢) رشاد عبد الله الشامى، المرجع السابق ص ٥٨ .

Miller, D.R. The Study of Social Relationship : Situation , Identity and Social interaction, in S. Koch (ed.), Phcycology : A Study Of Science, New York, Mc - Graw hill, 1963, p. 673 .

(٣) نقلاً عن : رشاد عبد الله الشامى، المرجع السابق، ص ٥٨ .

فتعريف ميللر السابق لا يحدد نوعية هذه السمات، هل هى مكتسبة أم موروثة، ومن ثم تكون عملية الفصل بين الشخصية والهوية عملية مصطنعة قد تؤدى إلى تشتت الذهن فى معالجة قضية الشخصية اليهودية.

ويمكن القول بأنه على الرغم من أهمية الدور الذى تحدده البيئة فى رسم سمات الشخصية، وما يلعبه التاريخ فى وضع أطرافها، وما تساهم به الجغرافيا كذلك فى تباين هذه عن تلك فإننا بدراسة صورة الشخصية اليهودية فى أعمال أدبية متباينة اللغات نستطيع الوقوف على الجانب الفطرى الوراثى المميز لهذه الشخصية، وسنجد كيف أن هذا الجانب قد طغت مظاهره على أى جوانب أخرى من جوانب الشخصية اليهودية، وهذا ما أكده الدكتور الشامى فى دراسته حيث قال: «... إن اليهودى سواء كان يهودياً منتمياً انتماءً كاملاً ليهوديته ببعديها الدينى والقومى، أو يهودياً هارباً من دينه إلى دين آخر ليتخلص من مشاعر الدونية التى يستشعرها من خلال نظرة الآخرين إليه، أو يهودياً يحاول أن ينتمى إلى مجتمع الأغلبية بوسيلة من الوسائل، هذا اليهودى، يظل فى النهاية يهودياً ولا يستطيع أن يتحلل تماماً من هويته اليهودية، لا على المستوى الشخصى ولا على مستوى نظرة أبناء المجتمع الذى يعيش فيه، بالرغم من تلك المسافة التى قد يستشعرها سواء تكون تلك التى بينه وبين نفسه أو بينه وبين الآخرين، لأن وجوده مشبعاً عن وعى أو عن غير وعى بالعادات والسلوكيات والتقاليد المرتبطة بالدين اليهودى حتى ولو كان علمانيا، من ناحية، وبعدم القدرة على التخلص من رؤية الآخرين له وهى الرؤية التى ترفض بإصرار إسقاط يهوديته عنه مهما لبس من أردية دينية أو ثقافية غير يهودية، من ناحية أخرى» [١].

(١) رشاد عبد الله الشامى، المرجع السابق، ص ٧٠ - ٧١.

واخيرا ، فإن الوصول إلى السمات الرئيسية للشخصية اليهودية، كما صورها الأدب، يمكن أن يقدم لعلماء النفس والاجتماع مادة هامة تعينهم فى دراستهم المتخصصة، كما يمكن أن يقدم للمراقبين والمحللين من ذوى الإتجاهات السياسية وغيرها ما يسهل لهم تحديد سبل التعامل مع «النموذج اليهودى» الذى أصبح مفروضاً على الساحة أكثر من أى وقت مضى.

الفصل الأول

الأدب المقارن : تعريفاته وحدوده

الفصل الأول(*)

الأدب المقارن : تعريفاته وحدوده

من الغريب حقًا أن تظهر بوادر علم الأدب المقارن منذ عام ١٨٢٧ ، وبعد مضى هذه الحقبة الزمنية الطويلة نجد أنه مازال هناك اختلاف حول هذا العلم : تعريفه وميادين بحثه ودوره. وقد يستمر هذا الاختلاف قرونًا أخرى ما لم تظهر مذاهب توفيقية ذات أثر تستطيع أن تخفف من غلواء الأطراف المختلفة، وتستفيد من وجهات النظر المتعددة من أجل تدعيم قواعد هذا العلم وتوجهه لخدمة الأدب بوجه عام.

وينقسم الحديث فى هذا الفصل إلى عدة مباحث أهمها:

المبحث الأول

تعريفات الأدب المقارن

كى نقف على فحوى هذا العلم ينبغى لنا أن نشير بإيجاز إلى تعريفه من خلال ما ذهب إليه رواده على اختلاف إتجاهاتهم وميولهم، حيث نجد أنفسنا أمام ثلاث مدارس بارزة، أهمها وأقدمها : المدرسة الفرنسية.

وأشهر أقطاب هذه المدرسة هو فان تيجم مؤلف كتاب الأدب المقارن، والذى ضمنه نظريته فى هذا العلم وهو يرى «أن غاية الأدب المقارن هى أساسًا دراسة الآداب المختلفة فى علاقتها مع بعضها البعض[1]».

(*) هذا الفصل مأخوذ عن كتابنا قضايا الأدب المقارن فى إطار الدراسات السامية ، المركز القومى للدراسات العربية والإسلامية « فجر » الجيزة ، ١٩٩٢ ، ص ١٧ - ٦٤ .

(١) رينيه ويليك ، مفاهيم نقدية ، ترجمة محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة (١١٠) ، الكويت ١٩٨٧ ، ص ٣١٥ .

ويعرفه فرانسوا جويار فيقول : «إن الأدب المقارن هو تاريخ العلائق الأدبية الدولية فالباحث المقارن يقف عند الحدود اللغوية والقومية ويراقب مبادلات الموضوعات والفكر والكتب والعواطف بين أديبين أو عدة آداب[١]».

ويرى ج. م. كاريه أنه «دراسة العلاقات الروحية الدولية أو الصلات الحقيقية التي وجدت بين بايرون و بوشكين، بين جوته و كارلايل، بين ولتر سكوت و فيني، بين أعمال الكتاب الذين ينتمون إلى آداب عدة وحيواتهم ومصادر إلهامهم»[٢].

كما تعرفه آنا سابينا ريفنياس Revigmns بأنه علم حديث يهتم بالبحث فى المشكلات المتعلقة بالتأثيرات المتبادلة بين الآداب المختلفة[٣].

وتأتى «الثورة الأمريكية على المفهوم الفرنسى للأدب المقارن ممثلة فى رأى رينيه ويليك الذى يرى ضرورة أن يدرس الأدب المقارن الأدب كله من منظور عالمى ومن خلال الوعى بوحدة كل التجارب الأدبية والعمليات الخلاقة وبذا يكون الأدب المقارن فى رأيه ،هو الدراسة الأدبية المستقلة عن الحدود اللغوية والعنصرية والسياسية».[٤]

وجوهر الاختلاف الأمريكى - الفرنسى فى هذا المقام يرجع إلى أن الفرنسيين يركزون اهتمامهم على الجانب التاريخى ومن ثم يضعون علم الأدب المقارن فى صفوف التاريخ الأدبى ويستبعدون عناصر النقد الأدبى من دائرة اهتمامهم، بينما يرى الأمريكيون أن النقد لا ينفصل عن التاريخ إذ ليست فى الأدب حقائق محايدة. فعملية اختيار كاتب ما للدراسة وإختيار عناصر معينة

---

(١) ماريوس فرانسو حويار ، الأدب المقارن ، ترجمة محمد غلاب ، ١٩٥٦ ، ص ٥ .

(٢) رينيه ميليك ، المرجع السابق ، ص ٣١٥ .

(٣ ، ٤) رينيه ويليك ، المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

لمناقشة الكتاب فى ضوئها هى عمل نقدى بحت، كما أن الوصف والتشخيص والتفسير والتقويم هى عناصر هامة ومن الصعوبة حصر المقارنة فى إطار العلاقات التاريخية فقد تكون مقارنة اللغات والأنواع الأدبية ذات قيمة تضارع قيمة تلك العلاقات التاريخية.

لقد استطاع ويليك أن يستشف من مواقف الفرنسيين تحديداً مصطنعاً لمادة البحث ومنهجيته، كذلك المفهوم الميكانيكى للمصادر والتأثيرات بالإضافة إلى الاعتماد على القومية الثقافية، وهذه الأعراض جميعها تمثل فى رأيه «أعراضاً لازمة طويلة المدى فى الأدب المقارن.» إن البحث الأدبى الحقيقى فى رأى ويليك ينبغى ألا يتوقف عند الحقائق الميته، بل عليه أن يتناول الخصائص والقيم. فالقول بتأثير راسين على فولتير أو هيرد على جوته لن يكون ذا معنى إذا لم تدرس خصائص هؤلاء بالإضافة إلى السياق التاريخى الذى ينتمون إليه» وهذه كلها عمليات موازنة ومقارنة وتحليل لا تخرج عن الإطار النقدى.[1]

إذن فجوهر الاختلاف بين المدرستين يتمثل فى حصر الفرنسيين لمفهوم الأدب المقارن فى المنهج التاريخى، بينما تتسع الرؤية الأمريكية لتربط بين المنهج التاريخى والمنهج النقدى باعتبارهما عاملان ضروريان فى الدراسة المقارنة.

فالمؤرخ الأدبى كما يقول الأمريكى نورمان فوستر لابد من أن يكون ناقداً من أجل أن يكون مؤرخا، ومن ثم لا يمكن الفصل بين النظرية والنقد والتاريخ، بل يجب أن تتعاون جميعها لتحقيق المهمة الأساسية المتمثلة فى وصف العمل الفنى وتفسيره وتقويمه.

ومن تعريفات الأدب المقارن أيضاً ما ذهب إليه هـ. ريماك من أنه «دراسة

---

(١) المرجع السابق ص٣٦٩.

الأدب بحيث تتعدى حدود القطر الواحد » ودراسة العلاقات القائمة بين الأدب من ناحية وبين مجال المعرفة والمعتقدات كالفنون والفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية والعلوم البحتة والأديان... الخ من الناحية الأخرى[١].

والتعريف السابق يفتح آفاقاً جديدة وعديدة أمام الباحث المقارن، قد تعرض لها بشئ من التفصيل عند الحديث عن ميادين ومجالات علم الأدب المقارن.

أما اوين الدريج فعرف الأدب المقارن قائلاً : «من المتفق عليه الأن بصفة عامة أن الأدب المقارن لا يقارن الآداب القومية، بمعنى أن يضع أحدها إزاء الآخر ولكنه بدلاً من ذلك يقدم منهجاً لتوسيع نظرة الانسان فى تناوله للأعمال الأدبية المعينة. إنه طريقة للنظر إلى ما وراء الأطر الضيقة للحدود القومية من أجل إدراك الإتجاهات الأخرى للنشاط الانسانى. باختصار يمكن تعريف الأدب المقارن بأنه دراسة أية ظاهرة أدبية من وجهة نظر أكثر من أدب واحد أو متصلة بعلم آخر أو أكثر».[٢]

ويرى عبد الحكيم حسان[٣] أن أهم ما يتميز به المفهوم الأمريكى للأدب المقارن أنه قد استجاب للمتغيرات الفكرية والمنهجية التى تطورت خلال النصف الأول من القرن العشرين مثل المذهب الشكلى وما تطور إليه من فكر دنيوى، كما أنه يحاول تلافى أوجه القصور فى المفهوم الفرنسى.

بيد أن المذهب الأمريكى - فى رأى حسان - لم يخلص نهائياً من بعض عيوب المذهب الفرنسى اذ جاءت تعريفات الأمريكيين غير متسمة بالوحدة

---

(١) المرجع السابق .

(٢) عبد الحكيم حسان « الأدب المقارن بين المفهومين الفرنسى والأمريكى » مجلة فصول ، المجلد الثالث ، العدد الثالث ، إبريل - مايو - يونيه ١٩٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٦ .

(٣) المرجع السابق .

المتكاملة وظهر فيها طابع الأزدواجية، فالأدب المقارن حسب مفهومهم يعنى أولاً المقارنة بين الآداب، كما يعنى ثانياً مقارنة الأدب بغيره من وسائل التعبير الانسانى وقد أدى هذا التعريف إلى تكوين مفهومين لا مفهوم واحد فى الذهن.

كما سقط الأمريكيون فى فخ القومية التى عابوها على الفرنسيين. لقد تورط الأمريكيون فى قومية من نوع آخر عكستها نظرتهم الخاصة إلى التراث الأدبى الغربى باعتباره منطقة مميزة بذاتها فى نطاق الدراسات المقارنة.

وبين الفرنسيين والأمريكيين وجدنا مدرسة أخرى ربما يمكن أن نسميها المدرسة الشرقية عكست رد فعلها تجاه المدرستين السابقتين.

ففى رومانيا، يرى الكسندر ديما ـ استناداً إلى تعريفات الفرنسيين ـ عدم إمكانية اقتصار مادة علم الأدب المقارن على العلاقات الدولية وحدها، إذ أن لهذا العلم محتوى أكثر عمقا، وهو يقترح استبدال مصطلح «العلاقات» عند الفرنسيين والذى يفسر بالمعنى الضيق للعلاقات المباشرة بمصطلح آخر هو «التناسب» والذى يعنى فى رأيه جوانب أخرى من جوانب علم الأدب المقارن ويتناول ظاهرة الخطوط المتوازية وما يخص كل أدب مأخوذ على حدة.

ويخلص ديما إلى تعريف آخر للأدب المقارن وهو أنه يدرس العلاقات المتبادلة بين مختلف الآداب، وبتعبير آخر فهو يدرس الاتصالات المباشرة، التأثيرات، الاقتباسات، التشابهات المتماثلة وكذلك العمليات الخصوصية لتطور الآداب القومية.[1].

وعلى نحو مشابه، تنطلق الدراسات الحديثة فى علم الأدب المقارن فى

---

(١) الكساندر ديما، مبادئ علم الأدب المقارن ، ترجمة محمد يونس ، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص ٦٢ .

الاتحاد السوفيتى، وكما يحددها أحد رواد هذا المجال جيرمونسكى «Zhirmunsky» ليس فقط من دراسة ما يسمى بالتأثيرات والاقتباسات بل أيضاً من ،إقامة صلة التشابه والاختلاف بين الظواهر الأدبية وتفسيرها تاريخيا[١].

أما نيوبوكويفا Neupokoeva فقد هاجمت دعوة المقارنين الامريكيين إلى ضرورة الدراسة النقدية للظواهر الأدبية، إذ أن ذلك يعد احجاماً بالجانب الأيدولوجى للنص ونظرة قاصرة إلى المؤلف الأدبى باعتباره «شكلاً منغلقا» على نفسه، كما هاجمت أيضاً هؤلاء الذين لا يشترطون الحدود الدولية واللغوية فى دراسات الأدب المقارن» ورأت فى هذه المعارضة دعوة لمسح الحدود القومية بين الآداب واغفالاً لتفرد القومية.[٢]

ولكن التشيكى ديورشين Durshin يؤيد المذهب الامريكى الخاص بصعوبة الفصل بين دراسات الأدب المقارن وتاريخ الأدب ونظرية الأدب ويرى فى الفصل بينها ضيق أفق. «فالفرق بين الموازنات الأدبية داخل الأدب القومى وبين الآداب القومية وبعضها هو بالطبع موجود ولكنه يحمل طابعاً مبدئياً» ففى حالة الدراسة الموضوعية المتواصلة لهذين المجالين الخارجيين للحقائق الأدبية نجد أنهما يكملان بعضهما البعض.[٣]

ويفرق ديورشين بين شكلين من أشكال الدراسات المتعلقة بعلم الأدب المقارن وهما «العلاقات المتبادلة» والتطابقات الناتجة عن علاقات «التوازى»

---

(١) ف. جيرمونسكى، علم الأدب المقارن، لينينجراد، ١٩٧٩، ص ١٠٢ نقلاً عن مكارم الغمري، مؤثرات عربية واسلامية فى الأدب الروسى، سلسلة عالم المعرفة (١٥٥) الكويت، ١٩٩١، ص١٧ .

(٢) م. نيوبوكويفا ، مشاكل التفاعل المتبادل للآداب المعاصرة ، موسكو ، ١٩٦٣ ، ص ٣٠ ، نقلاً عن مكارم الغمرى، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) د. ديورشين، نظرية الدراسة المقارنة، موسكو ١٩٧٩، ص ٦١ ، ٦٢ نقلاً عن مكارم الغمرى المرجع السابق ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

ويضعها معاً فيما يطلق عليه «الاتصالات الخارجية» التى يفصل بينها وبين «الاتصالات الداخلية» والتى تعكس فى رأيه رد فعل الأدب المستقبل على ظواهر الأدب الأخرى والتى تظهر فى شكل مقالات وتعليقات على هذا الأدب.[١]

ويوضح لنا كيوركى ديموف (Gueorgui Dimov) بعض معالم المدرسة السابقة على النحو التالى :

«إن النضج والتطور الثقافى ـ التاريخى والجمالى، لكل شعب، وللانسانية عامة» مشروط بعناصر متعددة، ومختلفة فى نظامها الروحى الإبداعى

وتقود مكوناتها إلى مصادر وطنية وأجنبية، تولدت عنهـا ظواهر ونزعات، حددت - بطرق ظاهرة وصفية، وبشكل فنى - أشواطاً لشعبيته، وأحداثاً اجتماعية، واصطلاحات أيدولوجية وأخلاقية وآلاماً انسانية عميقة.

ونقبل اليوم كحقيقة علمية قاطعة، بأن أدب كل فترة، وكل شعب، خضع فى نموه إلى قاعدة اتصال متلاحق، عبر الغزوات الثقافية والحركات الايدولوجية والمفاهيم الجمالية للشعوب المجاورة، المتقاربة والمتباعدة.

وقد ساهمت - بقوة الشروط التاريخية المحددة - علاقات إبداعية متبادلة فى إغناء الآداب الوطنية بمساعدة أهم تقاليد السيرورة الأدبية العالمية.

حفزت هذه العلاقات المتبادلة، القوة المبدعة للكتاب، من مختلف الأجيال، والذين حددوا وبدرجة كبيرة، معنى تطور الفكر النظرى الجمالى والنقدى.

ويحدد التنوع والتعقد، والطابع الوطنى والدولى، للممارسات الروحية والعقلية، وتوالد وعمل القيم الفنية والعلمية، آنية للدراسات المقارنة اذ على

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠.

قاعدة تحليل شامل ومقارن، يمكننا توضيح طابع ودور وأهمية الشروط المختلفة، والتى حددت الولادة والأهمية الدائمة أو المؤقتة، للظواهر الفنية، وكذا طريقة ادراكها.

إن المعالجة المقارنة للظواهر الأدبية، والثقافية العامة، لتسمح برؤية أحسن، وتقدير أكثر للمسارات التى تصاحب التقدم الروحى العام، واكتشاف وتدقيق ما يمثل نظاماً عاماً فى الخصوصية الوطنية والفردية، فى اطار تطور أدب كاتب، ومجموعة اقليمية أو اثنية، عبر فترة أدبية كاملة.[١].

ومن مذهب ديموف السابق يمكن أن نضع أيدينا على المعالم الرئيسية لوجهة نظر هذه المدرسة متمثلة فيما يلى :

إن نقطة البدء فى تحديد الظواهر الادبية تكمن فى المصادر الوطنية والأجنبية، كما أن الآداب تخضع لقواعد محددة للاتصال والتبادل.

أما فيما يتعلق بالدراسات المقارنة فإنها تخضع إلى القيم الفنية وتشابكها، وتكمن هذه الدراسات فى تحليل الظاهرة الأدبية وشروطها، كما يقوم الدرس المقارن بتمييز النظام العام للخصوصية الوطنية [٢].

والملاحظ للتعريفات السابقة للأدب المقارن يمكنه الوقوف على مدى ما بينها من اختلاف رئيسى يجعلنا نقف بين تيارين رئيسيين وهما الفرنسى والأمريكى، ولا تخرج الآراء الأخرى عن حدودهما.

---

(١) Gueorgui Dimov, Quelques Problemes Actuels De l'etude comparee Delalitt, Rev., Synthesis, Bucarest, 1974, p . 1

نقلاً من سعيد علوش ، مدارس الأدب المقارن ، ص ١ ، ١٩٧٤ دراسة منهجية ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ١٩٨٧ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) مزيد من تفاصيل موقف المدرسة الشرقية أو ما سماه البعض بالمدرسة السلافية فى سعيد علوش ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ وما بعدها .

فمن بين مؤيد وناقد للمذهبين الفرنسى والامريكى جاءت لنا مذاهب أخرى يمكن أن ندمجها جميعًا فى تيار توفيقى يسعى للاستفادة من كل هذه الآراء دون أن يلتزم بتأييد كل ما جاء به هذا أو رفض كل ما جاء به ذاك على نحو ما شاهدنا عند البعض.

فالمذهب الفرنسى له إيجابياته وله أيضًا سلبياته، وكذلك المنهج الامريكى، وإذا حاولنا الربط بينهما استطعنا الخروج بمنهج أقرب إلى التكامل.

إن الجدل القائم حتى الآن حول تعريف الأدب المقارن لم يوقف الدراسات المنتمية إليه، وبعد تلك الاعوام التى مرت على هذا العلم، ينبغى ألا نجعل جل اهتماماتنا سرد التعريفات بقدر ما نركز على إثراء الجانب التطبيقى لهذا العلم وبخاصة فى الشرق العربى.

المبحث الثانى

الأدب المقارن واللغات

وبعد أن سقنا مفاهيم المدارس المختلفة تجاه الآدب المقارن، والتى ستفيدنا فيما بعد عند الحديث عن مجالات وميادين هذا العلم، إذ أن اهتماماته ترتبط بتعريف كل فريق ووجهة نظره ازاء فحواه ومضامينه.

وقبل الولوج إلى تفاصيل هذه النقطة ـ مجالات الأدب المقارن ـ ينبغى علينا مناقشة قضية اساسية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأدب المقارن، وتلعب دوراً رئسياً كذلك فى تحديد مجالات العمل فيه، ألا وهى مكانة اللغة فى الدراسات المقارنة ثم بيان أهمية هذا العلم بوجه عام.

لقد أثارت قضية اللغة ومكانتها فى الأدب المقارن جدلاً واسعاً، ونحن أمام آراء واضحة فى تباينها، ونجد صداها مدوياً فى كتابات فان تيجم الذى أثار التساؤل حول اللغة فقال :

ما هى حدود أدب من الآداب فى عصر من العصور؟

ما هى الحدود التى إذا تعديناها جاز لنا ان نتحدث عن أدب أجنبى وعن تأثر أو تأثير به فيه ؟

الجواب على هذا سهل حيثما تكون المساحة اللغوية منطبقة كل الانطباق أو بعضه على المساحة السياسية كما هو الشأن بين فرنسا وانجلترا أو فرنسا واسبانيا لكن هذا الانطباق غير متوفر فى غالب الأحيان وهناك حالات كثيرة يصعب أن نجد لها حلاً عاماً فكثيراً ما تكون اللغة السائدة فى بلد من البلدان ممتدة إلى ماوراء حدوده، وهنا لا بد أن نتساءل :

هل نلحق الآثار التى تظهر فيما وراء هذه الحدود بالأدب القومى الذى تنتجه الأمة ؟

أما الألمان فإنهم يعتقدون بذلك فيما يتعلق بهم، فتراهم يضعون الكتاب السويسريين هالر وبودمر وج.كيلر، والكاتبين النمسويين روزجر وانتسنجروبر فى عداد الأدباء الألمان، بل فى منازل طيبة من مصاف هؤلاء الأدباء. وأما فى فرنسا، حيث الوحدة القومية مغرقة فى القدم، وحيث الشعور بهذه الوحدة عميق قوى، فاننا نستحى أن ننسب إلينا من ليس منا. لكننا لأسباب بديهية نعد روسو، ودى ميستر، كاتبين فرنسيين، رغم أن الأول من جنيف والثانى من سافوا، ونقبل فى عدادنا فينه وشيرر ورو وشربولى السويسريين، وورودنباخ وفرهارن البلجيكيين لأنهم حوموا حول باريس كمركز أدبى، ولكننا ندع لسويسره توبفر، وندع لبلجيكا كاميل ليمونيه، لأنهما آثرا البقاء فى بلادهما. ولذلك يجب أن نعد تاثير زولا فى كاميل ليمونيه داخلاً فى نطاق الأدب المقارن، وكذلك الرومانطيقية فى جنيف. وكذلك التأثيرات الفرنسية فى الأدب الكندى المكتوب باللغة الفرنسية. وكذلك الكتاب الأمريكان بالنسبة إلى الأدب الانجليزى، فقد أصبح الانجليز لا يدخلون آثارهم فى نطاق الأدب الإنجليزى.

لهذا يجب أن ننظر إلى تأثير كارليل فى امرسون أو تأثير ارجابو فى القصاصين الانجليز على أنه من موضوعات الأدب المقارن[1].

و من هذا الاستشهاد المطول يمكن أن نستنتج ما يلى :

أولاً : أن الالمان يؤمنون بما يمكن أن نسميه «وحدة اللغة» بالنسبة للأدب، أعنى أن كل ما كتب بالألمانية، سواء فى المانيا أو خارج حدودها الجغرافية والسياسية هو أدب ألمانى.

---

(١) فان يتجم، المرجع السابق، ص ٥٢-٥٣.

ثانياً : أن الفرنسيين يؤمنون بعكس ما سبق، مع وجود استثناءات لذلك فهم حسبما يرى فان يتجم تأثير زولا فى كاميل ليمونيه داخلاً فى اطار الأدب المقارن، تماماً كما يعتبرون التأثيرات الفرنسية فى الأدب الكندى المكتوب باللغة الفرنسية ضمن حدود هذا الأدب أيضاً.

ثالثاً : ان الانجليز ذهبوا مؤخراً مذهب اخوانهم الفرنسيين، فاستبعدوا الأدب الامريكى المكتوب باللغة الانجليزية من دائرة الأدب الانجليزى، وعليه اعتبر تأثير كارليل البريطانى فى امرسون الامريكى أو ارجابو الامريكى فى القصاصين الانجليز - وكل هؤلاء قد كتبوا بالانجليزية - ضمن موضوعات الأدب المقارن.

ومن ناحية أخرى يرى الكساندر ديما أنه يمكن استخدام اللغة كمقياس من مقاييس التفاضل بين الظواهر المقارنة ولكن من خلال التطور التاريخى ظهر عدد ملحوظ من الآداب ذات اللغة الواحدة والمتمايزة فيما بينها مثل الأدب الاسبانى فى امريكا الجنوبية بالإضافة إلى اسبانيا ذاتها والأدب الفرنسى فى كندا وفرنسا والانجليزى فى امريكا الشمالية وبريطانيا.

هذه الآداب ترعرعت فى محيط ظواهر مستقلة بحد ذاتها خاضعة للمقارنة وتدخل ضمن دائرة اختصاص علم الأدب المقارن [١].

يقول ديما :

«فيما يخص علم الأدب المقارن، كمجال علمى من مجالات الأدب، فإن مادة أبحاثه الموضوعية المتواصلة هى الناحية الخاصة بالظواهر الأدبية بالذات، وليس مجرد دراستها كلاً على حدة أو فى مجاميع ما ضمن مرحلة تاريخية مناسبة، بل

---

(١) الكساندر ديما : المرجع السابق، ص٦٣.

تناسب تلك الظواهر كما اشرنا آنفاً - مع شبيهاتها فى أجواء قومية أخرى. هنا يتوجب علينا أن نلاحظ أن الاختلافات اللغوية فى مثل هذا التناسب لا تعتبر أساساً كافياً لأبحاث من هذا القبيل رغم أهميتها الكبيرة، وذلك لأن التناول المقارن يتم حتى بين الآداب ذات اللغة الواحدة».[١]

وقد وجدنا من علماء وأساتذة الأدب المقارن فى مصر والعالم العربى من أيد بشدة ضرورة اختلاف اللغة وجعلها شرطاً أساسياً للدراسة المقارنة.

فيرى الأستاذ الدكتور طه ندا فى كتابه «الأدب المقارن» أن «الحدود الفاصلة بين أدب وآخر فى مجال الدراسة المقارنة هى اللغات، فاختلاف اللغات شرط لقيام الدراسة الأدبية المقارنة. والآثار الأدبية التى تكتب بلغة واحدة تخرج من مجال درس الأدب المقارن وإن تأثر بعضها ببعض».[٢]

كما يذهب الاستاذ الدكتور الطاهر مكى مذهباً مشابهاً فيقول :

«... يمكن القول بأن الحدود الأدبية لا تنطبق على الحدود السياسية ولا مع تطور القوميات وإنما تلتقى مع الحدود اللغوية فحسب، وهى وجهة نظر يدعمها أن الأدب عملية لغوية فى المقام الأول قبل أن يكون شيئاً قومياً أو سياسياً».[٣]

ثم يضيف فى موضوع آخر :

«... والأدب المقارن لا يتجاهل احساس الكاتب القومى أو القضايا الوظيفية التى يعرض لها. أو الألوان المحلية التى يطلى بها أفكاره، ولا شخصية هذه

---

(١) ديما، المرجع السابق، ص١١.

(٢) طه ندا ، الأدب المقارن ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٢١ .

(٣) الطاهر أحمد مكى، الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجهه، دار المعارف، ١٩٨٧ ص ٢٣٩.

الآداب وذاتيتها، وكل ما هنالك أنه يرى أن هذه الخصائص ليست بذات أهمية فى الدراسة المقارنة وأن الحدود القومية تساوى قليلاً فى مجال الاعتبار إذا لم تدعمها الحدود اللغوية».[1]

ولنا تجاه مسألة اللغة وقفة.

إن الآراء السابقة، والتى اشترطت اختلاف اللغة لم تقدم لنا دليلاً تطبيقياً يدعم موقفها، بمعنى أنها لم تقم بدراسة لنموذجين ـ داخل إطار الأدب المقارن ـ ينتميان للغة واحدة ويختلفان فى شتى الجوانب الأخرى.

نعم، نحن مع أستاذنا الدكتو الطاهر مكى فى أهمية اللغة بالنسبة للعمل الأدبى، ونحن أيضاً مع هؤلاء الذين يرون فى مقارنة الآداب ذات اللغات المختلفة عملية ثرية ومجدية للغاية.

ولكننا لسنا مع أولئك جميعاً فى شرط اختلاف اللغة فى قيام الدراسة المقارنة، لأن اللغة ـ مهما كانت أهميتها ـ هى أحد جوانب الدراسة وليست كلها.

فبالرغم من «وحدة اللغة» بين الأدبين الفرنسى والكندى إلا أن هناك العديد من الاختلافات بينهما.

وكذلك الأمر بين الأدبين البريطانى والأمريكى، أو بين الأسبانى والبرازيلى.

وعلى غرار ما سبق، نضيف هنا إمكانية الدراسة المقارنة للأدب العربى بمفهومه العام مع الأدب العربى المكتوب على أيدى اليهود فى اسرائيل فتراث الكاتب اليهودى الإسرائيلى، حضارته، واقعه، ومن ثم أحاسيسه وأفكاره، بل لغته العربية أيضاً، كل ذلك يتباين بصورة أو بأخرى مع مثيله لدى الكاتب

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٠.

العربى الذى يعيش فى بلد عربى استقى منه تراثه وخلفيته الأدبية وموضوعاته وأساليبه....[١].

كما أننا ـ فيما يتعلق بالحدود الجغرافية ـ نريد أيضاً اثبات خطأ الاعتقاد بضرورة اختلاف الحدود.

فهناك آداب متباينة اللغات داخل حدود دولة واحدة مثلما فى سويسرا أو بلجيكا أو رومانيا أو إسرائيل.

ففى رومانيا - مثلاً - نجد أدباً باللغة الرومانية إلى جانب أدب باللغة الالمانية مع ثالث باللغة الهنغارية، وهى تصلح جميعها لقيام دراسات مقارنة خصبة وإن كانت داخل إطار قومى واحد، وحدود جغرافية واحدة.

وفى إسرائيل أيضاً، نجد أدباً باللغة العربية وآخر بالعبرية وثالث بالإيدية وهذه كذلك تصلح لمقارنة فى شتى ظواهرها وموضوعاتها ولغاتها.

وعلى عكس ذلك، هناك آداب قد تختلف فى لغاتها القومية، لكنها متشابهة فى سمات التطور والتقاليد مثلما نجد فى الاتحاد السوفيتى، حيث خضعت بعض الآداب القومية فيه لرؤية مذهبية وفكرية واحدة رغم توفر شرط الحدود اللغوية، وهذه الآداب قد لا تجدى كثيراً فى الدراسات المقارنة.

إن تجربة الآداب المعاصرة كافية لهدم كثيرٍ من المعتقدات التى سادت منذ أكثر من قرن فى مجالات الأدب المقارن، كما أنها كافية كذلك لدعم وتعضيد معتقدات أخرى.

---

(١) قمت بدراسة تطبيقية حول هذا الموضوع بعنوان : قضايا الأدب المقارن فى إطار الدراسات السامية ، المركز القومى للدراسات العربية والاسلامية (فجر) ، الجيزة ، ١٩٩٢ حيث اثبتت هذه الدراسة خصوبة هذا المجال من الدراسة المقارنة .

ويبقى أن نقول بأن حصر مهمة الأدب المقارن بقيود لغوية أو قومية أو عنصرية هو محاولة لكبت مجالات حيوية داخل نطاق هذا العلم ولتكن الكلمة الحاسمة لإقرار نظرية أو نفى أخرى للمجال التطبيقى وحده.

المبحث الثالث

أهمية الأدب المقارن

تعددت آراء المهتمين بعلم الأدب المقارن فى إطار إبراز أهمية هذا النوع من الدراسات وفقاً لرؤية كل فريق ولفهمه لماهية الأدب المقارن.

فهذا العلم ـ فى رأى فان تيجم ـ له أهمية خاصة إذ يحاول أن يشمل أكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الأصل حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة منها على حدة، فهو يوسع أسس المعرفة، كما يجد أسباب أكبر عدد ممكن من الوقائع.(١)

وهو كذلك متمم ضرورى لتواريخ الآداب الخاصة. فالدراسات التى يقوم بها المؤرخ للأدب القومى تكتمل وتتسع بإضافة النتائج التى يصل إليها المقارن. كما أن الأدب المقارن هو الطريق إلى المعرفة الأعم، معرفة التاريخ الأدبى العالمى.(٢)

ومن أعظم مزايا الأدب المقارن عند تيجم أنه يحارب العزلة الزائفة لتواريخ الآداب الوطنية، حيث تربط العلاقات المختلفة بين الآداب.(٣)

أما الكسندر ديما فقد حدد أهمية هذا العلم فى الدور الذى يلعبه فى عملية اعداد تاريخ الآداب القومية، وجمع الجوانب الأكثر تميزاً فى الآداب القومية وتوحيدها وخلق العالم الروحى للانسانية جمعاء،كما أنه يبين الافتراضات الأقتصادية و السياسية والاجتماعية بالإضافة إلى العوامل الأدبية الخاصة مثل التقاليدالتى ساعدت على إبراز التأثيرات والتشابهات المنظمة.

---

(١) رينيه ويليك ، المرجع السابق ، ص ١٧

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦٢ .

ويساهم الأدب المقارن أيضاً فى الولوج إلى الجوهر الخفى للعمليات الأدبية بصورة أعمق، وإغناء البحث فى الجوانب النفسية للنتاج الأدبى، ويحدد الدور الطليعى لبعض الأدباء ويتابع تأثيراتهم العالمية ويدفع عجلة التقارب بين الشعوب عن طريق تسهيل عجلة التفاهم المتبادل.[1]

ومما لا شك فيه أن الإطلاع على آداب أجنبية ومقارنتها بالأدب القومى يؤدى الى التخفيف من حدة التعصب للغة والأدب القومى الذى كثيراً ما ينتج عنه العزلة عن التيارات الفكرية والثقافية المفيدة التى تساهم فى اثراء الأدب.

كما تنعكس إحدى فوائد الأدب المقارن على الدارس ذاته، إذ تكون فيه درية خاصة تساعد على تميز ما هو قومى أصيل وما هو أجنبى ودخيل من تيارات الفكر والثقافة،[2] ولا يخفى ما لذلك من أهمية فى تحصين الفرد من التيارات الضالة فى الفكر عامة.

ومن ناحية أخرى، ساهم استخدام الأدب المقارن كمنهج يسهل البحث عن المبادئ العامة المكونة لنظرية الأدب فى إنجاز بعض المهام التى حددتها امينة رشيد فيما يلى.[3]

١ - دراسة القواميس والمعاجم وتأثير اللغات بعضها على بعض فى حالة وجود الفاظ أو أبنية مستعارة من الخارج.

٢ - فن الترجمة، والترجمة من أهم وسائل النقل للآداب والثقافات، وان توجيهاتها مؤشر هام يطلبه أدب من أدب آخر، وهى طريقة لفهم أعمق

---

(١) انظر : ديما ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ - ١٩٠ .

(٢) طه ندا ، المرجع السابق ، ص ٢٧ . انظر ايضاً : محمد غنيمي هلال ، دور الأدب المقارن فى توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ١٧

(٣) أمينة رشيد «الأدب المقارن والدراسات المعاصرة لنظرية الادب» مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الثالث ، ابريل ـ مايو ـ يونيه ١٩٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٥٦ .

للثقافات الأخرى ولآدابها ، إذ أنها تتطلب معرفة جيدة باللغتين، وتعليماً دقيقاً لتراث اللغتين ولتراكم التجربة الانسانية والثقافية الكامنة فيهما ، وهى أخيراً امكانية لإظهار الثابت والمتحول أو العام والخاص فى الآداب.

٣ - القيام بدراسات مقارنة فى علم الشعر والوزن.

٤ - القيام بدراسات مقارنة للصور الأدبية مثل دراسة صورة الحب الالهى والحب الانسانى لاستخراج الثوابت والمتغيرات.

٥ - ازدهار الدراسات الأسلوبية المقارنة.

٦ - دراسة الأنواع الأدبية وما لها من أهمية خاصة فى مجالات النقد الأدبى.

كما يرى الأستاذ الدكتور الطاهر مكى أن غاية الأدب المقارن يشى بها منهجه فهو يفسر لنا ظاهرة أدبية بواسطة ظاهرة أخرى شبيهة ويوضحها وفى هذا تحقيق للمتعة والفائدة.

إن أهمية الأدب المقارن تكمن كذلك فى إضافة معارف جديدة للعمل الأدبى بالإضافة إلى إيقاظ الفضول الأدبى أو اشباعة فى أنفسنا ، واثارة الإهتمام بجوانب لا يعرض لها تاريخ الأدب متعمقاً، كما أنه يدفعنا إلى تفسيرات والبحث عن أسباب لولاه لظلت خفية لا تثير باحثاً ولا تسترعى أى انتباه. [1].

---

(١) الطاهر أحمد مكى، المرجع السابق، ص ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٠.

المبحث الرابع

ميادين ومجالات الأدب المقارن

بعد عرض التعريفات التى وضعها علماء الأدب المقارن لهذا العلم، والتى استقينا منها اهميته، نخرج منها كذلك بمحاولة لتوضيح بعض مجالاته دون إدعاء حصرها.

والحديث عن هذه المجالات يستوجب ـ قبل الولوج إلى تشعباتها ـ تناول بعض المصطلحات التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتحديد ميادين الأدب المقارن ومجالاته مثل التأثير وما يشابهه من مصطلحات قد تقترب أو تتباعد من مضمونه، والتوازى، ثم الوقوف على بعض النقاط الأساسية التى توضح العديد من مجالات الأدب المقارن، والتى تفتح أمام الدارسين آفاقاً رحبة لخوض غمار هذه النوعية من الدراسات.

التأثـــير :

أول ما يتبادر إلى الأذهان عند الحديث عن الأدب المقارن أن ثمة عملية تأثير وتأثر ينبغى أن تعكسها الدراسة المقارنة، ولكن قد يقع الباحث فى خلط لمفاهيم تتقارب فى فحواها ومضمونها مثل التأثير والتقليد والاقتباس والمحاكاة.

أما التأثير فله مراحل أولها الإهتمام والدراسة وثانيها الاستيعاب وثالثها الانعكاس أو التأثر، وهو بمعنى الاكتساب الشعورى أو اللاشعورى الذى يدخل فى تفاعل معقد مع العملية الإبداعية بحيث يصبح جزءاً مكوناً لها.

وأفضل طريقة للتفرقة بين مفهومى التأثير والتقليد من ناحية والمضمون هى القول بأن التأثير هو تقليد لا شعورى وأن التقليد هو تأثير شعورى مقصود.

إن التأثير شئ متغلغل فى العمل الفنى، وهو كما يعرفه اولدريدج «شئ يوجد فى عمل مؤلف ما، ما كان ليوجد فيه لو لم يقرأ المؤلف عمل مؤلف سابق» وهو يتفق مع شو فى قوله: «ليس التأثير شيئاً يظهر كأسلوب منفرد مجسم بل ينبغى علينا أن نبحث عنه فى ظواهر كثيرة متعددة».(١)

ويمكن أن نجد نوعين من التأثير، أولهما التأثير الإيجابى، وهو التأثير النشيط على الأدباء بمعنى انضمام أعمال أديب ما إلى تيار أدبى قومى إلى أدب آخر بحيث يلعب إنتاج هذا الأديب دوراً مؤثراً فى تطوير الأدب القومى أو إنتاج بعض الأدباء. أما النوع الثانى من أنواع التأثير فهو التأثير السلبى ويتمثل فى رفض أدباء ينتمون لأدب قومى واحد لإنتاج أديب أجنبى ومن خلال إعلان هذا الرفض فى أعمالهم الأدبية.(٢)

ويحدث التأثير الإيجابى نتيجة عوامل عدة أبرزها ما يتميز به إنتاج الأديب المؤثر والاستعداد الداخلى للبيئة المستقلة واحتياجات التطور الخاصة لأدبائها، وهذا ما يعبر عنه جيرمونسكى فى تعريفه للتأثير، حيث ينفى ميكانيكية التأثير، ويربطه بشروط معينة يحددها التطور القومى السابق على التأثير والظروف الاجتماعية والتطور الأدبى، بل إنه يشترط وجود ضرورة محددة لاستيراد الأجنبى.(٣)

ويضرب جيرمونسكى مثالاً على ذلك بتأثير جوته الألمانى على روسيا فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر، ويعزى ذلك التأثير لوجود عناصر فعاله - داخل أعمال جوته - مع مختلف التيارات الأدبية والاجتماعية فى ذلك القرن.

(١) اولريش فايسشتاين ، التأثير والتقليد، ترجمة مصطفى ماهر، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٨٣، ص ١٩ .

(٢) مكارم الغمري ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣) ف .، جيرمونسكي، علم الأدب المقارن، ص ٧٤ ، نقلاً من مكارم الغمري ، المرجع السابق ص ٣٤ - ٢٥ .

ويضع الكسندر ديما مقياسين ينبغى الأخذ بأحدهما فى تبويب التأثيرات، أما الأول فهو سعة هذه التأثيرات، فهى إما تكون فردية مثل حالات تأثير كاتب معين على كاتب آخر كتأثير موليير على غولبيرج والذى كتب عنه ا. لاغريل عام ١٨٦٥، أو تأثير أديب بعينه على طائفة من الأدباء كما فى بحث ف. بالداتسبرج «جوته فى فرنسا» والذى نشر عام ١٩٠٤، وإما أن تكون هذه التأثيرات جماعية، وهى أكثر تعقيداً مثل تأثير أفكار الثورة الفرنسية على الأدب الإيطالى وهو الموضوع الذى بحثه پول آزار عام ١٩١٠ أو التأثيرات الفرنسية على مكونات الفكر الاجتماعى فى رومانيا مثل بحث بومبيلو ايليا دى عام ١٨٩٨.

والمقياس الثانى يتعلق بالمحتوى ذاته وما نقل من أدب إلى آخر وهو بذلك يشمل المواضيع والأفكار والأحاسيس والأجناس والأشكال الأدبية وتركيبات النتاج والهياكل النحوية والأسلوبية، ومن أمثلة ذلك تأثير حكاية امفيترون الاغريقية الخرافية على كثير من أدباء أوربا ومنهم موليير، وتأثير الفلسفة الألمانية المثالية لهيجل او شوبنهاور على كتابات امينسكو، وتأثير الإتجاه العاطفى والنزعة (الرسولية) لتعاليم روسو على تولستوى وآثار الدراما الفرنسية الرومانتيكية على تطور المسرح الأوربى ككل.[1]

ولقد اوضحت التجارب الأدبية للعديد من مشاهير الأدباء أهمية التأثيرات الأجنبية على تطور انتاجهم، فالتعرف على الكتاب الكلاسيكيين للشعوب الأخرى له دوره البارز فى توسيع أفق الفكر القومى وإدخال عناصر جديدة إليه، وهذا الاتصال الدولى - كما يقول الناقد الروسى ميخائيلوف - يعد أحد أكثر

---

(١) ديما ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

المحركات الفعالة للانسانية على طريق التقدم [١].

ومع ذلك ينبغى أن نشير هنا إلى عدم الإفراط أو التفريط فى قيمة التأثيرات بالنسبة لأدب من الآداب، فليس من السهولة أن نتحدث فى زمننا عن تصورات على شاكلة «الوعاء المغلق» لأنه ما من أدب يمكنه التقوقع على ذاته واعتزال الآداب الأخرى.

إن الحذر الشديد لمطلوب عند تحديد التأثيرات والتشابهات المنظمة بين الآداب فالمقارنة اللغوية للنصوص ليست الدليل الوحيد على وجود تأثير، كما أنها لا تعطى امكانية تباين التأثير، فرب قصيدة أو رواية قد تأثرت بعمل أجنبى ثم لا نجد بين العملين فقرة واحدة متشابهة. إن الوقوف على التأثيرات فى هذه الحالة يتطلب دراسة دقيقة للنصوص عن طريق تحليل العواطف والأسلوب، ومن خلال ارتباط هذه النصوص بالحياة الاجتماعية، وقد اشترط البعض[٢] وجود صلة حقيقية فعلية بين الكاتبين : المؤثر والمتأثر، ورأى فى وجود تشابهات بين عملين من الأعمال الأدبية دون قيام صلة فعلية بين الكاتبين جانباً بعيداً كل البعد عن قضية التأثر.

والحقيقة أن هذا الرأى ليس له ما يبرره، فالمتأثر لا يتأثر فى معظم الاحيان بالكاتب ذاته - وأن هناك كانت أمثلة لذلك - وإنما بكتابات هذا أو ذاك، وقراءتى لأعمال أدبية خالدة، ترجع إلى عصور خلت، وتأثرى بها، لا يمكن إلا أن نضعه فى قائمة دراسات التأثير والتأثر والتى هى أحد أركان علم الأدب المقارن.

---

(١) م . ميخائيلوف، «شيللر فى ترجمة الأدب الروسى» أعمال ميخائيلوف، جـ٣، موسكو ١٩٥٨، ص ٤٨ نقلاً عن مكارم الغمرى، المرجع السابق، ص ٢٧ .

(٢) Ihab, H., Hassan ,The Problem of Influence in literary History : Notes Towords a Definition , Journal of Aesthetics and Art Critcism, xIv, 1955, p. 68

نقلاً عن : سمير سرحان ، « مفهوم التأثير » ، مجلة فصول ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

ومن ناحية أخري، يمكن أن نحدد للعمل الأدبى بعض جوانبه التى تقبل الانتقال، ويمكن أن نبحثها فى إطار عملية التأثير :

أولاً : الموضوع، وهو مادة العمل الأدبى، وله بناؤه الخاص وتفصيلاته وأحداثه وشخصياته، ومن خلال الدراسة المقارنة للموضوعات المتشابهة يمكن الوقوف على التغيرات التى طرأت على معالجة الموضوع الواحد لدى انتقاله من أدب إلى آخر مع تغير السياق التاريخى والقومى، وهذا من شأنه المساعدة على فهم خصائص الموضوع الأدبى ذاته.

ويمكن على سبيل المثال أن ندرس فاوست فى الأدب الألمانى والفرنسى أو كليوبترا فى الأدب الانجليزى والفرنسى والعربى....

ثانياً : الشكل، أو النموذج الأدبى، أى النوع الذى ينتمى إليه العمل المؤثر، وليس«بالضرورة أن يكون الشكل واحداً فى نموذجى الدراسة المقارنة.

فيمكن ـ مثلاً ـ أن تكون دراسة أشكال الأدب الوجدانى مادة للأبحاث المقارنة، كما يمكن أيضاً دراسة الأنماط الأدبية المتداولة فى السياق العالمى وتأثيرها على كاتب بعينه أو مجموعة من الأدباء، كتأثير الرواية بأنواعها، والأقصوصة والقصيدة التعليمية والمحاورة....

ثالثاً : التعبير ومصادر الأسلوب والصور الأدبية. وإذا كان أسلوب المرء ـ كما قال بوفون ـ قطعة منه، فان هذا الأسلوب يتكون من الإبداع الشخصى والتقليد القومى والمؤثرات الأجنبية، وإمكانية دراسة هذا الجانب متاحة ويسيرة إذا ماقورنت بغيرها، ولعل من أبرزها دراسة أثر القافية الثلاثية أو المقطع الثلاثى وهو بحر «الملهاة الالهية» لدانتى و «المظافر» لبترارك وقد استعمله فى الفرنسية بعد الرومانتيكية خاصة، كل من بريزو ولو كنت دى ليسل، وهيريديا

وغيرهم، كما نجد أيضاً تأثير اسلوب الغزل التروبادورى على كتابات الكثيرين فى ايطاليا واسبانيا وفرنسا وانجلترا منذ القرن السادس عشر.

رابعاً : الأفكار والمشاعر، ولها أهميتها فى هيكل الظاهرة الأدبية. والأفكار ليست قاصرة على تلك التى تتخذ الأدب موضوعاً لها، أى الافكار الفنية والأدبية وحسب، وإنما تشمل الأفكار الدينية والتى استطاعت أن تشق طريقها إلى كتابات العديد من الفرنسيين على وجه الخصوص من أمثال باسكال وفولتير وروسو وشاتوبريان ان وغيرهم، كما تشمل كذلك الأفكار الفلسفية، ولا نعنى بها الأفكار البحته، إذ تخرج هذه عن نطاق التاريخ الأدبى، وإنما نعنى تلك الأفكار التى تحمل طابعاً اخلاقياً أو اجتماعياً أو أدبياً، ولدينا أمثلة لذلك تجسدت فى ديكارت وأثره فى الفكر الأدبى، وسبينوزا الذى أثر مذهبه فى وحدة الوجود فى آراء ومشاعر جوته، ولوك الذى أخذ فولتير بآرائه وتحمس لها.

إن الأفكار الأخلاقية أكثر أهمية من الفلسفة بالنسبة للمقارن، لأنها تشق طريقها اإى الأدب، شعره ونثره، ومنها يستمد مادته، وهى - كما ذهب فان تيجم - «تشمل تأملات الكاتب فى الانسان وطبيعته ومصيره فى هذا العالم أو غيره من العوالم، كما تشمل الآراء النقدية التى تحكم أفعال الانسان وتملى عليه سلوكه وفقاً لمبادئ أخلاقية أو اجتماعية، فإن النظر والعمل - اعنى التأملات النظرية والقواعد العملية - لا يمكن أن تنفصلا فى تعبيرهما الأدبى....».[1]

ولا يفوتنا أن نذكر هنا آثار أفكار روسو الأخلاقية خاصة على أدباء المانيا، ثم على تولستوى فى روسيا، وكذلك تأثير نيتشه فى فرنسا.

وقد ذهب ديا إلى استحالة الفصل - فى الأبحاث المقارنة - بين المنهج الفلسفى والمنهج الأدبى فى إطار هيكل الظاهرة الأدبية.[2]

(١) فان تيجم ، المرجع السابق ، ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) ديا ، المرجع السابق ص ٧٨ ـ ٧٩ .

خامساً : الشهرة الواسعة لشخصية الكاتب، وفى هذا المقام ينبغى أن نوضح احتمالات التأثير التى تنتج عن كاتب بعينه، ولها جوانب عديدة. فقد يكون تأثير الكاتب بشخصيته الفكرية والروحية، ومثال ذلك ما أحدثه روسو من تأثير نتيجة صراحته وعطفه على الانسانية وتعاليه فى مواجهة معاصريه.

وقد يكون التأثير فنياً صرفاً حيث يقتدى الأدباء بكاتب معين فى نوع فنى محدد، أوجده من عدم، أو أيقظه بعد خمول، و أبرز مثال فى ذلك ما تركه مقدم بن معافى من أثر فى العالم كله شرقه وغربه على امتداد العصر الوسيط وما تلاه، عن طريق فن الموشحات، وكذلك أثر بديع الزمان الهمذانى فى خلق فن المقارنة وشكسبير فى فن المسرح، وراسين فى أسلوب مآسيه وملتون فى ملحمته ووالتر سكوت فيما يتعلق بالرواية التاريخية والعصر الرومانسى.

وهناك نوع مستقل من تأثير الكاتب فى غيره وذلك عن طريق أفكاره التى يعتنقها، وهو جانب لا تخفى أهميته وخطورته ووجدناه متمثلاً فى تأثيرات ماكيافيلى ومونتسكيو فى السياسة وفولتير وروسو فى «الفلسفة وبوالو وليسينج وشيلر فى الفن والنقد.

كما قد يمد الكاتب مقلدية الاجانب بالموضوعات على نحو تأثير شكسبير فى الألمان وتأثير الكتاب الأسبان فى أوربا كلها منذ ١٥٧٠ بمسرحياتهم وملاهيهم ومآسيهم.

كذلك قد يكون تأثير كاتب فى آخر أجنبى فى صورة إخصاب للأخيلة عن طريق اكتشاف ميادين جديدة وإشاعة أطر غير مألوفة وأوساط اجتماعية وأجواء كانت إلى ذلك الحين مجهولة أو شبه مجهولة. فقد كشف ملتون لكلوبستوك وشاتوبريان وفينى عن بعض جوانب التوراة والمسيحية، وكما دفع شارلز ديكنز قراءة إلى الحياة التى يحياها صغار الموظفين وتعساء الأطفال.

وربما نجد سلسلة متعاقبة من التأثيرات الأدبية المتنوعة من جانب كاتب واحد على غيره من الأدباء وذلك على نحو ما فعل شكسبير إذ أثر فى البداية بموضوعاته ثم بشكله وقالبه المسرحى ثم بتحليله النفسى وأخيراً جاء تأثير أفكاره، كما جاءت تأثيرات روسو كذلك متعددة، فكرية وعاطفية وأخلاقية وروائية.

وينبغى أن نفرق بين نجاح كاتب ما فى بلد معين وبين تأثيره فى أدب هذا البلد فالنجاح ليس مؤشراً ودليلاً - كما يرى فان تيجم - على التأثير وإن مهد له وساعد على نشوئه، ومع ذلك فإن دراسة تأثير كاتب فى بيئة أخرى، متصلة إتصالاً وثيقاً بنجاحه بحيث يصعب أن نفصل بين القضيتين.

ولكن كيف نبدأ دراسة تأثير كاتب فى بلد أجنبى ؟

يحدد فان تيجم منهج العمل فى هذا الإطار على نحو واضح وجلى، فهو يضع عدة احتمالات لنقطة البدء «فقد يبدأ الباحث بالنجاح الشخصى الذى حققه الكاتب، أو بما لقيته مؤلفاته عند النقاد أو بما تركته هذه المؤلفات من أثر عميق. فى أغلب الأحوال، فعلى الباحث أن يتساءل : ماذا كان إطلاع البلد الآخر أو الكاتب الآخر على هؤلاء الكتاب الأجانب ؟ أعلى هذا الكتاب أم على ذلك ؟ هل عرفهم مباشرة أم كان ذلك عن طريق الترجمات ؟ وما قيمة هذه الترجمات ؟ وماذا كان لها من صدى فى الأوساط الأدبية وفى الصحافة وفى جمهرة القراء؟ وماذا لقيت من استحسان خاص، ثم ماذا لقيت من مقاومات؟ وماذا كان انتشارها الحقيقى وفى أى الأوساط انتشرت بوجه خاص؟ هل قلدت؟ وما الذى قلد منها ؟ أنواعها أم أسلوبها أم أفكارها أم عواطفها أم موضوعاتها أم زخارفها؟ وهل كان لها تأثير فى الفكر أو الفن إلى جانب محاكاتها الشكلية أو بدون هذه المحاكاه؟ وهذا التأثير أكان سطحياً أم كان عميقًا ؟ أكان عارضًا أم كان باقيًا ؟ وما هى

العناصر التى كانت إلى ذلك الحين منحبسة فى الأذهان والقلوب ثم أبرزتها هذه المؤلفات إلى النور ؟ ماذا خدمت أو حاربت من اتجاهات ؟ [١].

وليس بالضرورة أن نجد الجوانب الخمسة السابقة مجتمعة فى العمل الواحد الذى نضعه فى إطار البحث، فقد يكون التأثير غالباً على جانب واحد منها أو اثنين، كأن يتأثر الأديب بجانب واحد من العمل الذى افتتن به : كبناء عقدة القصة، أو بما فى الاسلوب من تجديد أو بالشكل أو القالب الذى صيغ فيه العمل.

أما التقليد فهو محاولة إعادة صياغة نموذج أدبى معين يقوم بها عادة كاتب أقل موهبة من صاحب العمل المقلَّد، وهى محاولة «مع سبق الاصرار» وليست لا شعورية على نحو ما قدمنا فى الحديث عن التأثير، كما أن التقليد يتصل بتفصيلات مادية فى العمل الأدبى يمكن تحديدها بسهولة مثل الشكل الفنى أو الاساليب أو الآستعارات المحددة.

وفى التقليد كما يقول شو [٢] يتخلى المقلد ويتنازل عن الجوانب الإبداعية فى شخصيته ويسلم قيادها لشخصية أخرى، أو لعمل آخر ـ وهو فى نفس الوقت لا يلتزم تفاصيل نموذج الذى يقلده، شأن الترجمات، ولكنه يتدخل فى صياغته بقدر موهبته واستيعابه لهذا العمل.

والمقياس الذى يقاس به التقليد هو المقياس الكمى لا النوعى بمعنى أن يحدد الدارس «الكم» الذى تم أخذه من العمل الأصلى على«عكس ما نجد فى

---

(١) فان تيجم، المرجع السابق، ص ١٠٨.

J., literary Indebtedness and Comporative literary studies in Comperative literature Method and Perspective, Newton Illinois University Press , 1961 , p .
Shaw, 61

نقلاً عن مكارم الغمرى المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٢) سمير سرحان ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

تتبع التأثيرات حيث يكون المقياس النوعى هو العامل الحاسم فى كشف هذه التأثيرات.[١]

ويعتبر الاقتباس المعتمد على الترجمة الحرفية نوعًا من التقليد الذى لا يخلو من إبداع وتجديد حيث يقوم المقتبس «بأقلمة» نموذج أدبى معين ليتواءم وأذواق بيئته وجمهوره، وكلما كان المقتبس ذا موهبة كلما صُبِغَ العمل الجديد بصبغة محلية تمنحه سيادة تخفى أصوله التى قد تكون غريبة تمامًا عن هذا المجتمع.

ومن التقليد نوع لا يعتمد على تقليد نموذج أدبى محدد وإنما يعتمد على تقليد أديب بعينه أو عصر بعينه، وهو ما يعرف فى تاريخ الأدب باسم المحاكاة الأسلوبية، وهى فى نظر «شو» قريبة من التقليد، وفيها يسعى مؤلف ما لبلوغ هدف فنى فينتقى مؤلفاً آخر أو عملاً أدبيًا أو أسلوب عصر بأسره ثم يربط بين الأسلوب والمواد.[٢].

وينبغى علينا هنا أن نشير بإيجاز إلى نظرية المحاكاة والتى تعنى إفادة الأديب من كتابات الآداب الآخرى لتنمية قدراته وإمكاناته الفنية من أجل إثراء أدبه القومى بثمار الآداب العالمية. وقد وضع الناقد الرومانى كانتيليان (٣٥ ق.م - ٥٦م) بعض الأسس الهامة للمحاكاة أوجزها الدكتور غنيمى هلال فى النقاط التالية :[٣]

---

(١) فايسشتاين ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢) محمد غنيمي هلال ، دور الأدب المقارن فى توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر ، المرجع السابق ص ٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٤ . والمزيد من المعلومات حول نظرية المحاكاة انظر : سهير القلماوى ، فن الأدب (١) المحاكاة ، دار الثقافة العربية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٣ .

١ - ان المحاكاة مبدأ لا غنى عنه فى الفن.

٢ - ان المحاكاة تتطلب استعداداً خاصاً لمن يحاكى ولا بد فيها من بذل الجهد.

٣ - على الكاتب الذى يحاكى ان يتخير النماذج التى تسهل محاكاتها، ومن ثم ينبغى أن يكون ذا قدرة على تمييز الجيد من الردئ.

٤ - ان المحاكاة فى ذاتها غير كافية إذا ما اقتصر عليها الكاتب وإنما ينبغى أن تكون له بمثابة وسيلة لتنمية إمكانياته وأن لا تعوق إبداعه وابتكاره وتحول دون أصالته.

فالمحاكاة إذن ليست تقليداً محضاً وإنما هى الاقتداء بنماذج معينة من شأنها أن تسهم فى تنمية إمكانيات الكاتب، وتعد نظرية المحاكاة بالنسبة للأدب المقارن نظرية بدائية فى منهجها وثمراتها لأنها ذات طابع عملى محض.[١]

التوازيات :

تحظى دراسات التوازى باهتمام كبير فى دراسات الأدب المقارن فى العديد من الدول وهى بلا شك احدى ثمار المدرسة الامريكية التى تسعى إلى الربط بين النقد الأدبى والتاريخ الأدبي، ومن ثم فهى توجه اهتمامها بالدرجة الأولى إلى الدراسات التى تعتمد على التوازى بين الأعمال الأدبية بهدف إبراز القيمة الفنية للعمل الأدبي، ونتج عن ذلك عدم الاهتمام بالعلاقات والصلات الحقيقية الموثقة بين الأعمال موضوع المقارنة على نحو ما ذهب إليه الفرنسيون. فما يهم المدرسة الامريكية هنا هو المقارنة فى حد ذاتها دون النظر إلى ما إذا كانت هناك علاقة فعلية بين كاتب و آخر.[٢].

(١) Remak, H, H, H Comparative literature at the Crossroads : Diagnosis Theropy and Prognosis, Yearbook of Comparative and General literature, Ix, 1960, p. 9

نقلاً عن سمير سرحان ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٢) J., shaw , Op . Cit . , p . 60

ويقسم ج. شو التوازى إلى ميدانين رئيسيين هما :

دراسة مادة المقارنة فى عمليين أدبيين أو أكثر ويرتبط ذلك بدراسة الموضوعات المتشابهة أو المتوازية، أى بالمضمون.

ودراسة عناصر الشكل التى يمكن مقارنتها كذلك بين عملين أو أكثر.

ولعلنا نلحظ أن دراسة التوازيات فى المجالين السابقين لا تشترط وجود علاقة فعلية بين أصحاب الأعمال ولا بين الأعمال ذاتها، كما لا ترجع أيضا إلى تراث مشترك بينها.

فالقيمة الحقيقية التى تنطوى عليها دراسات التوازى تكمن فى رأى ـ شو ـ فى انها دراسات نقدية من شأنها إلقاء الضوء على هذه الأعمال وإبراز الخصائص المميزة لها من خلال المقارنة.[1]

وقد اهتمت دراسات الأدب المقارن فى دول اوربا الشرقية بدراسات التوازي. يقول الروسى كونراد : «تنطلق هذه الدراسات من فكرة وحدة عملية التطور الاجتماعى التاريخى للانسانية والتى تعنى وحدة تطور الأدب بصفته أحد الركائز الفكرية».[2]

ووفق المفهوم «الروسى»، للادب فإن دراسات التوازى تفترض وجود أوجه شبه فى آداب الشعوب عند درجات واحدة من التطور الاجتماعى وسواء كانت هناك تأثيرات متبادلة أم لا فإن ملامح هذا التشابه تظهر بوضوح. فالعلاقات السياسية والاجتماعية لعصر معين، كعصر الإقطاع مثلاً تفسر على أنها ثمرة

---

(١) ن. كونراد ، الغرب والشرق ، موسكو ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣٦ ، نقلاً عن مكارم الغمرى ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٢) مكارم الغمري ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

قوى متشابهة فى مختلف أرجاء العالم. فالتشابه فى الظروف يعكس تشابهًا أو توازيًا مماثلاً فى مجالات الفكر والفن والأدب.

ودراسات التوازى فى رأى هذه المدرسة تساعد على التعرف على السمات العامة فى الظواهر الأدبية، كما تساعد كذلك على التعرف على الخصائص القومية والتاريخية والظواهر الأدبية المتشابهة.[١]

العلاقة :

فى التمييز بين الأدب المقارن والأدب العام، حصر فان تيجم مهمة الأول فى دراسة العلاقة المتبادلة بين أدبين، بينما جعل مهمة الثانى الحركات والأنماط السائدة بين عدة آداب.

إن كلمة «العلاقة» من وجهة نظر المقارنين القائلين بها تعنى وجود ثمة اتصال بين كاتبين أو أديبين بطريق اللقاء أو تبادل الرسائل أو قراءة أحدهما مؤلفات الآخر، أو التقاط أفكاره بطريقة ما.

أما إذا وجدنا تشابهًا بين أديبين، أو أدبين، ولم تثبت «العلاقة» بينهما فهذا فى رأى المدرسة الفرنسية لا يدخل فى إطار الأدب المقارن فهم يشترطون السببية لوجود هذا التشابه. أما المدرسة الامريكية وعلى رأسها ويليك فإنها لا تذهب هذا المذهب، بل ترى أن قيام مثل هذه التشابهات، مثل ما نجده بين نجيب محفوظ فى ثلاثيته وبين الكاتب الايطالى فاسكو براتو لينى فى بعض أجزاء من ثلاثيته أيضاً، هو من صميم اهتمامات دراسات الأدب المقارن.

إن ويليك يرفض اعتبار أثر ولتر سكوت على الأدب الفرنسى ضمن دراسات الأدب المقارن وفى نفس الوقت أبعد دراسة الرواية التاريخية خلال العصر

---

(١) ويليك ، المرجع السابق ، ص ٣٦٣ .

الرومانسى عن دائرة اهتمامات هذا العلم، فهو يرى فى المفهوم الفرنسى محاولة لحصر الأدب المقارن فى دراسة التجارة الخارجية للآداب، وهذا من شأنه أن يجعل الأدب المقارن من حيث موضوع دراسته مجموعة من الأجزاء المتناثرة التى لا يربطها رابط ولا يستطيع الدارس المقارن طبقاً لهذا المعنى الضيق أن يفعل أكثر من دراسة التأثيرات والأسباب والنتائج.[١]

أما الذين قالوا بضرورة العلاقة فقد ميزوا بين أنواع ثلاثة من العلاقات التى تهتم بها الدراسات الادبية المقارنة، وهى على النحو التالى:[٢]

١ – علاقة اتصال، وهى مباشرة، وتستلزم وجود طرفين مختلفين ينتميان إلى قوميتين مختلفتين لغة وهى تتطلب مرسلاً ومتلقيًا ووسيطًا.

٢ – علاقة تداخل، وهى غير ملموسة ويقصد بها العلاقات الأدبية العالمية القائمة وذلك بدراسة جنس أدبى بعينه وأثره على جنس آخر، كتأثير المقامة العربية على نشأة رواية الصعلكة فى أسبانيا.

فهذا النوع من العلاقات يقوم إذن على ما هو جماعى وعام، وإلى جانب علاقة التداخل المحدد بعصر معين تأتى العلاقة التى تهتم بأدبين قوميين فى مجموعهما، والنظرة الإجمالية المقارنة لمجموعة من الآداب التى تتلاقى بعض جوانبها وهى تأتى بعد دراسات ثنائية سابقة تعتمد على تتبع مختلف العلاقات كتأثير الموشحات فى الشعر الفارسى أو التركي، أو الأصول الفرنسية للمسرح العربى فى مصر.

٣ ـ علاقة شيوعًا أو تداول وتعنى كل ما ينتقل من أدب إلى آخر من موضوعات وقضايا أدبية مع استبعاد للدراسات التى تقوم داخل إطار الأدب القومى الواحد.

---

(١) انظر الطاهر مكي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ وما بعدها .

دراســة النموذج الإنساني :

يقصد بالنموذج الانسانى فى الأدب تقديم صورة أدبية متكاملة الأبعاد لشخصية أو لطائفة انسانية بحيث تعكس مجموعة من المحاسن أو العيوب، من الفضائل أو النقائص والتى كانت تتوزع متفرقة فى عدة شخصيات.فيمكن إذن أن يكون النموذج الانسانى فرداً أو طائفة أو طبقة أو حتى سلالة أو مهنة من المهن. وأهمية هذا الميدان فى مجال دراسات الأدب المقارن تكمن فى الكشف عن اختلاف نواحى الكتّاب النفسية والاجتماعية والفلسفية فى معالجتهم لموضوع واحد وأمام تيار فكرى واحد كما يؤدى أيضًا إلى توضيح الصلات التى أثر بها الكتاب بعضهم فى بعض ويطرح أمامنا التيارات الفكرية المتحكمة فى العصور المختلفة. وأخيراً فإنه يكشف عن ناحية هامة من نواحى النشاط العقلى للانسان الحديث. (١)

وإذا تعرض الباحث لمثل هذا النوع من الدراسات المقارنة فعليه أن يبحث أولا فى أصل الموضوع ونشأته، وأن يحدد الأسباب التى دفعت به إلى طريق الأدب، ثم يتناول اتساع هذا الموضوع وانتشاره فى الآداب المختلفة وتطوره خلال العصور المختلفة، كما ينبغى عليه أن يشير إلى الموضوعات الأخرى التى تتشابه معه أو تتفق ومعناه الرمزى.

وأبرز النماذج التى دخلت هذا الميدان هى النماذج الدينية، فعلى سبيل المثال، اهتم أدباء الفارسية والتركية بقصة يوسف وزليخة كما وردت فى القرآن الكريم والتوراة، ووجدت شخصية الشيطان اهتمامًا واضحًا فى الأدب الحديث وبخاصة على يد الرومانسيين، وعلى نحو ما وجدنا عند الشاعر الانجليزى

---

(١) مزيد من التفاصيل حول النموذج الانساني في : محمد غنيمي هلال ، النماذج الانسانية في الدراسات الأدبية المقارنة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٥٧ .

ملتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) فى الفردوس المفقود حيث حمّل الشيطان آراءه الاستقلالية وقد اتخذ الرومانسيون من بعده صورة الشيطان رمزاً للتمرد الذى قاد صاحبه إلى الطرد من عالم الخير ومن ثم إدمان الشر، وجعلوه مركبًا لما يعتريهم من قلق وبؤس وضيق، ويتجلى ذلك بوضوح فى بعض كتابات بايرون وهيجوودى فينى وغيرهم، .

بل إن صدى هذا النموذج قد تمثل فى الأدب العربى على نحو ما عبر عنه العقاد فى قصيده له بعنوان «ترجمة شيطان».[1]

ومن النماذج الدينية كذلك اسطورة اليهودى التائه والتى ترمز إلى الواقع اليهودى، حيث يعيش اليهود حالة من الشتات والتشرد فى مشارق الأرض ومغاربها دون أن يستقروا فى مكان واحد. وهناك نماذج تاريخية تصلح كمجال خصب للدراسات المقارنة فلكل شعب تراثه التاريخى القصصى الذى يمتزج بخيال شعبى واضح يدفع بعض الأدباء إلى عملية استلهام من هذا الشتات بالتحوير والإضافة، وهكذا يتداوله جيل بعد جيل مكوناً أدباً قصصياً متميزاً، عكسه الأدب العربى – على سبيل المثال – فى قصة مثل قصة عنترة بن شداد، كما وجدناه فى الأدب الأوربى فى قصة الملكة مارى استوارت ونابليون.

إن بحر النماذج الإنسانية واسع لا ينتهى عند حد معين، وبإمكان الدارسين أن يثروا هذا الجانب الذى لا يخلو من طرافة ومتعة، فيقدموا لنا مثلاً صورة البخيل، صورة الكاهن، صورة الفارس، صورة العانس، صورة زوجة الأب، صورة الحماة، صورة البغى، صورة الشخص الآثم، صورة الثائر، فى الآداب العالمية المختلفة.

---

(١) انظر : الطاهر مكى، المرجع السابق، ص ٣٦٥ .

دراسة الموقف :

تمثل علاقة الكائن الحى ببيئته و بالآخرين فى زمان ومكان محددين ما يمكن ان نطلق عليه «الموقف»، وهو يختلف بلا شك عن موضوع العمل الأدبى والغرض من ورائه فقد يتحد الموضوع، وتختلف المواقف فى معالجته، وفقًا لاختلاف الأغراض.

ويعتبر الموقف حلقة بين الحدث وهو نشاط عضوى وبين الباعث وهو تجريد نفسى، وقد افاض الدكتور الطاهر مكى فى توضيح الباعث وميز بين درجاته حيث أشار إلى ما يسمى بالباعث الموءود أو الأعمى وهو الذى يتأتى عند انبثاق الباعث موقفاً يثير توتراً يتطلب حلاً، فإذا لم يتدفق هذا التوتر فى العمل الأدبى فان الحدث يأخذ اتجاهاً آخر.

كما أشار إلى ما يسمى بالباعث المهيمن وهو الذى يكثر تردده فى العمل الأدبى فيؤدى إلى تكرار فى الفقرات أو تشابه فى الكلمات.[1]

ومن هذه المواقف التى تصلح موضوعًا خصبًا من موضوعات الأدب المقارن دراسة موقف كاتب بعينه من بلد أجنبى وما عرف عن أخلاق هذا الشعب وعاداته وتفكيره العام، وهذا ما أقر به فان تيجم حيث أشار إلى ما يدين به الرومانطيقيون مثلاً فى المانيا وفرنسا وايطاليا لأسبانيا، وما يدين به فولتير وبريفو وروسو وتين لانجلترا، وما يدين به جوته ومدام دى ستايل وستندال وفازيل لايطاليا.

والأمر الذى لا شك فيه أن رحلة كاتب ما إلى بلد أجنبى أو إقامته فيه هى أمر ذو تأثير كبير بالنسبة إلى تاريخ العلاقات الأدبية، ومن ثم فإن صورة بلد ما

---

(١)الطاهر مكى، المرجع السابق ، ص ٣٥١ وما بعدها .

فى أدب كاتب أجنبى تعتبر مجالاً بارزاً من مجالات الدراسات الأدبية المقارنة.

ويمكن أن نعبر عن ذلك بصورة أخرى، فقد أبدى الفرنسيون اهتمامًا واضحًا بالنموذج الانجليزى، أعنى بالشخصية الانجليزية، ومازال هذا الاهتمام يشغل اهتمامهم حتى عصرنا الراهن. ففى بحث للفرنسى بيير ريبول بعنوان «الأسطورة الانجليزية فى الأدب الفرنسى ـ مرحلة الإصلاح» نشره عام ١٩٦٢، يعرض المؤلف لملامح صورة الانجليزى لدى الرأى العام الفرنسى فى الفترة ١٨١٥-١٨٣٠، وأن ابرز هذه الملامح : واقعية التفكير، بعض الازدواجية، حب الحرية، حب التسلط على الآخرين، وقد أضاف جويار ملامح أخرى فى بحث آخر له يتناول بعض النتاجات الأدبية فى فترة زمنية لاحقة.

ووجدنا اهتمامًا فرنسيًا آخر بالشخصية القومية الألمانية، ثم بالشخصية الايطالية والاسبانية وغيرها، بل وجدنا أبحاثًا عديدة عن الشخصية الروسية والامريكية والرومانية وغيرها.(١)

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المجال أن الانطباع عن هذا القطر أو تلك الشخصية لا يمكن أن يكون على نسق واحد أو ثابت على مر الزمن والعصور. فالظروف السياسية والاجتماعية والفكرية لبلد ما فى فترة معينة والتى تعكس انطباَعاً محدداً، قد تتغير، ومن ثم فإنها تعكس انطباعًا جديداً لدى الآخرين الذين يترجمون بدورهم هذا الإنطباع العام فى كتاباتهم.

ولعلى لم اجد نموذجاً، أو انطباعًا ثابتًا لم يتغير سوى ما يتعلق بالانطباع الذى تعكسه الشخصية اليهودية فى الآداب العالمية، إذ تكاد هذه الآداب، رغم اختلاف ظروفها واتجاهاتها الفكرية والعقيدية والأخلاقية تعطى صورة متشابهة إلى حد كبير لهذه الشخصية.

---

(١) انظر الكساندر ديما، المرجع السابق، ص ١٣٣ - ١٣٨ .

وتكمن أهميـة هذا الجانب من دراسات الأدب المقارن فى مجال معرفة الشخصية اليهودية فى الوقوف على الثوابت المميزة لهذه الشخصية ومن ثم رسم أسس التعامل معها فى شتى الظروف والأحوال.

ولقد وجدنا إهتمامًا غريبًا بدراسة الشخصية اليهودية فى الآداب العالمية كالأدب الانجليزى فى بريطانيا ، والأدب الأمريكى[1] بينما لم نوجه نحن العرب بعد اهتمامًا لهذا الجانب، وإن كنا قد طالعنا مؤخرًا محاولة قيمة للغاية لدراسة هذه الشخصية فى أدب الكاتب احسان عبد القدوس[2]، يمكن توسيعها لتشمل الأدب العربى المصرى ليس « فى مجال القصة أو الرواية فحسب، بل كذلك فى مجال المسرحية على نحو ما قدم لنا على أحمد باكثير فى العديد من كتاباته.

دراسة الظواهر الأدبية :

مادامت العلاقة وطيدة بين علم الأدب المقارن وتاريخ الأدب، فإن بإمكان الدارس فى هذا المجال أن يدرس جذور الظواهر الأدبية : مصادرها وتأثيراتها والنشأة الذاتية لتلك الجذور أى مراحل تكوين النتاج من خلال ارتباطها الوثيق بالعصر وكذلك الجانب اللغوى والأفكار والأحاسيس ومراحل تطور ذلك كله بالإضافة إلى مصير النتاج وما حققه من نجاح أو فشل فى آداب الشعوب الآخرى.

---

(٢) انظر علي سبيل المثال Fisch, h. The Dual Image : The figure of the Jew in English and American literature, London, 1971 and Modern , M., F, the Jew in The literature of England , Philadelphia , 1939 .

(٢) رشاد عبد الله الشامى ، الشخصية اليهودية فى أدب احسان عبد القدوس ، كتاب الهلال ، العدد ٤٩٦ ، ابريل ١٩٩٢ .

سنحاول فى هذا الكتاب تقديم نموذج تطبيقى لدراسة الموقف كقضية من قضايا الأدب المقارن فيما يتعلق بالشخصية اليهودية ليس فى أدب واحد فحسب وإنما فى أدبين مختلفين أيضاً وهما الأدب الانجليزى والأدب العربى .

ويركز الأدب المقارن من خلال هذه الدراسات على التأثيرات الاسلوبية للنماذج القومية والعلاقات المتعددة بين هيكل النتاج القومي وبين النماذج الأجنبية في محاولة للعثور على نقاط التقاء محددة.

إن علم الأدب المقارن - كما ذهب ديما - يضع نصب أعينه دائماً الجوانب الخاصة بالظواهر الأدبية المعروفة في العالم.[1]

أدب الرحلات :

لدينا مصطلحان في هذا المقام وهما الإثنوجرافيا والإثنولوجيا.

أما المصطلح الأول، الإثنوجرافيا، فهو كلمة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة.

وأما المصطلح الثاني، الإثنولوجيا، فهو يعني الدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوجرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الانسانية من حيث أصولها وتنوعها.[2]

والأدب المقارن يستفيد من مضمون المصطلحين السابقين ليس بهدف بيان الصورة الأدبية بحد ذاتها وإنما لبيان الأفكار العامة التي ساهمت في تكوين هذه الصورة في أدب من الآداب، وهذا يتطلب بيان طريقة تكوينها وتأثير البلاد الأجنبية بكل ما فيها من مظاهر على الكُتّاب.

ولا تنتهي مهمة الأدب المقارن عند ذلك الحد، وإنما يسعى كذلك لبيان ما

---

(١) ديما ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٢) حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٨، الكويت ١٩٨٩، ص٤٩.

فيها من صواب أو خطأ وبيان أسباب ذلك الخطأ وتصحيح صورة البلد أو الشعب موضوع الدراسة من أفكار الأمة وأدبها.

وأدب الرحلات هو المعين الذى يستقى منه الأدب المقارن معلوماته عن الشعوب، وبإمكان الباحث المقارن - كما يعرض الدكتور الطاهر مكى - [١] أن يسير فى طريقين مختلفين، وإن اختلطا فى بعض الأحيان، وهما :

* دراسة ما تعرفه دولة عن دولة أخرى فى عصر معين فى ضوء ما يقدمه الرحالة.

* دراسة رحالة بعينه، أفكاره وتصوراته ومكتشفاته وآرائه.

وبإمكان المقارن أن يوازن بين شهادات الرحالة عن شعب معين سواء من خلال رحالة واحد كدراسة صورة اسبانيا فى شعر شوقى، أو صورة مصر كما رآها الرحالة الفرنسى جيرار دى نرفال، أو من خلال أدب بأكمله كأن يتناول صورة شعب أو بلد فى أدب أمة أخرى.

وليس بالضرورة أن تكون الرحلة مباشرة، بمعنى قيام الرحالة بزيارة هذا البلد والعيش فيه، فهناك رحلات أخرى غير مباشرة وذلك عن طريق الإطلاع على ما كتبه الرحالة عن بلد معين، فقد وصف الشاعر الفرنسى شاتو بريان (١٧٦٨ - ١٨٤٨) غابات امريكا اللاتينية فى روايته «أتالا» دون أن يذهب إلى البلاد وإنما عن طريق رحلات الآخرين.

وقد يتخيل المرء رحلة غير واقعية بمعنى أن يفترض رحلة إلى عالم مثالى على نحو ما قام به الباحثون عن المدن الفاضلة من أمثال أفلاطون فى «الجمهورية» والفارابى فى «المدينة الفاضلة» وسان مور فى «مدينة الشمس».

وما دمنا بصدد الحديث عن المدن والبلدان، فهناك نوع آخر من الدراسات التى يهتم بها الأدب المقارن وهى دراسة بعض الأمكنة التى اهتمت بها بعض

(١) الطاهر مكى ، المرجع السابق ، ص٣١٦ .

الأعمال الأدبية أو التى لعبت دوراً فى توطيد العلاقات الأدبية بين الشعوب والتى يمكن أن يقال أن لها فى الأدب تاريخًا مثل البندقية والقاهرة وروما وباريس والريف والبحر والجبل والصحراء.

وإذا كان من النادر أن نجد فى مثل هذه الدراسات تأثيرات، فبإمكان الباحث أن يبين لنا الصور المختلفة التى عالج فيها الأدباء هذه الموضوعات وموقفهم منها.

وأخيراً فإننا لا نزعم أننا قد حددنا هنا مجالات الأدب المقارن وميادينه، وإنما وضعنا أيدينا فقط على بعضها وأهمها، لأن حصر هذه المجالات، وحصر منهج هذا العلم هى محاولات لا يمكن أن يقدر لها النجاح. فالمجالات واسعة ومتشعبة، وهناك دراسات عديدة يمكن أن تتم فى نواح عديدة كدراسة «الصالونات الأدبية» والجمعيات الأدبية، ودراسة المصادر والوسطاء وحركة الترجمة وغيرها من الموضوعات التى تساهم بحق فى إرساء قواعد الأدب المقارن.

الفصل الثانى

صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى

الفصل الثانى

صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى

فى هذا الفصل نعرض بايجاز لموقع الشخصية اليهودية من الأدب الانجليزى، ليس «بهدف احصاء الأعمال التى عالجت هذا الموضوع وإنما لبيان تطور تناول هذه الشخصية، على أن نشير فى الوقت ذاته الى أبرز الأعمال فى هذا المجال :

وينقسم هذا الفصل إلى مبحثين أساسيين هما :

١ - صورة اليهودى فى الأدب الانجليزى بوجه عام.

٢ - الشخصية اليهودية فى رواية ايفانهو للسير والتر اسكوت.

المبحث الأول

صورة اليهودى فى الأدب الانجليزى

إذا كانت شخصية الشيطان هى شخصية معقدة فى الأدب الانجليزى، فإن شخصية اليهودى أكثر تعقيداً حيث يرتبط الخيال الأدبى بالمشكلة التاريخية، ومن ثم جاءت صورة اليهودى فى الأدب الأنجليزى مزدوجة حقاً فهو يثير الرعب والخوف والكراهية من جانب، ويبعث فى النفوس الإعجاب والرهبة من جانب آخر والأدب الذى يتناول الشخصية اليهودية يحاول إبراز إحدى الصورتين أو عرضهما معاً.

ويمكن أن نلاحظ أن صورة اليهودى لدى الغرب المسيحى، تقف من ورائها معتقدات دينية ساعدت إلى درجة كبيرة فى تركيب أجزائها، ولعل النصوص الرئيسية التى تقدم لنا هذا التصور المسيحى لليهودى ومكانته فى الانسانية تتمثل فى رسائل القديس بولس إلى أهل غلاطية.[١]

ومع هذا، فصورة شايلوك اليهودى عند شكسبير - ليست صورة لليهودى الإنجيلى - بقدر ما هى صورته التاريخية المعاصرة. فالتيار التقليدى القديم فى عصر شكسبير كان يرى فى اليهودى شخصية كوميدية شريرة متعطشة للدماء، تسعى للانتقام من المسيحى الرقيق.

وأول رواية انجليزية كان لليهود فيها دوراً بارز هى رواية The Unfortunate Traveller التى كتبها Thomas Nashe عام ١٥٩٤ ومن بين شخصياتها يهوديان هما : Zachary, Zadoch الأول طبيب يشترى المسيحيين الأحياء من الثانى «لأغراض تشريحية» مما يعيدنا بالذاكرة إلى أساطير القتل الشعائرية.

(١) Harold Fisch, The Dual Image. The Figure of the Jew in English and American Literature, p. 13.

ونحن لا نؤرخ هنا للوجود اليهودى فى انجلترا، كما أننا لا نؤرخ للرواية الانجليزية وإنما سنقف على أبرز الملامح التى تقدم لنا صورة مبدئية للشخصية اليهودية فى هذا الأدب.

ولقد لعب اليهود دوراً بارزاً فى الحياة الاقتصادية الانجليزية، وبخاصة فى أعقاب تأسيس بنك انجلترا عام ١٦٩٤ وانتقال مركز الثقل من أيدى ملاك الأراضى إلى أصحاب رءوس الأموال، وبالتالى لم يكن من الممكن تجنب الشخصية اليهودية فى مجال الحياة الواقعى وهو الأمر الذى وجد له انعكاساً واضحاً على مرآة الأدب.

ففى القرن الثامن عشر صدرت عدة دراسات اقتصادية القت الضوء على بيوت المال اليهودية ودورها فى الحياة التجارية للبلاد.[١] كما ظهرت فى النصف الثانى من القرن ذاته عدة مقالات وأبحاث حول هذا الدور اليهودى ومن ثم كان من الطبيعى أن يصل «المد اليهودى» إلى الأدب.

وشهد القرن الثامن عشر عدة أعمال روائية تناولت من بعيد أو قريب الشخصية اليهودية بأساليب مختلفة.

ففى رواية Memories of an Heirers الصادرة عام ١٧٨٢ قدمت لنا الكاتبة Frances Burmey (١٧٥٢ - ١٨٤٠) اليهودى كمقرض للمال.

وفى عام ١٧٥٣، وهو العام الذى قدمت فيه للبرلمان ما يسمى بقائمة التطبيع التى تنادى بمنح اليهود حقوقًا مساوية لأهل البلاد، فى هذا العام كتب

(١) انظر علي سبيل المثال :

Thomas Maddax, The Antiquities of the Exchequer of the kings of England .

وفيه خصص المؤلف الفصل السابع لتاريخ بيوت المال اليهودية وقيمة الجالية اليهودية بالنسبة للحياة التجارية في انجلترا .

لنا السير Charles Grandison رواية ظهر فيها اليهودى الخليع سليمان ميرسيدا الذى لم تخل شخصيته من الرعب والغموض والثراء.

وقد وجه Smollett Topias (١٧٢١ - ١٧٧١)اهتماماً أكبر فى رواياته بالشخصية اليهودية والتى بدأها برواية The Adventures of Roderic Random عام ١٧٤٨ ولعب فيها اسحق رابين دور السمسار اليهودى المعهود آنذاك فى المجتمع الانجليزى، كما ظهرت أول شخصية يهودية نسائية فى القرن الثامن عشر فى روايته Peregrime Pickle عام ١٧٥١.

ويلاحظ على هذا الكاتب تغيير نغمته التى تناول بها الشخصية اليهودية من الشدة إلى الرقة واللين، وربما يرجع ذلك إلى الدور الذى لعبه اليهود لصالح انجلترا فى الأزمة المالية التى تعرضت لها البلاد عام ١٧٥٤، ولأن Smollett ذاته كان عضواً فى أحد الأحزاب الانجليزية فى ذلك الوقت، وكان يدرك أكثر من غيره أهمية اليهود فى بلاده.وربما يرجع أيضًا لما كتبه البروفوسير Gellert G.F. من جامعة Lipizig عام ١٧٥٢عن دور بعض اليهود فى إنقاذ مواطنين انجليز من الموت فى اضطرابات روسية.

أما كتابات Henry Filing (١٧٠٧-١٧٥٤)، Laurence Sterne (١٧١٣-١٧٦٨) فقد صورت اليهود فى إطار سلبى للغاية، فهم وراء زيادة السرقات فى انجلترا لتعاملهم مع البضائع المسروقة وهو ما اشتهروا به فى كثير من الروايات.

وكان للدور الذى قام به اليهودى Nathan Mayer Rothschild فى حرب انجلترا ضد نابليون فى معركة واترلو عام ١٨١٥، وتجنيد ثروته لصالح انجلترا الأثر الواضح فى تحسن صورة اليهود ووضعهم فى البلاد، وتوطدت العلاقات بين الأرستقراطيين الانجليز والأثرياء اليهود. يضاف إلى ذلك مشاركة بعض اليهود

للانجليز فى تأسيس بعض المشروعات التعليمية والدينية مما خلق نوعًا من التعاطف تجاه اليهود. كما كان لإلغاء الرق فى بريطانيا عام ١٨٠٧ أثره فى تزايد الإيمان بحقوق الانسان، وكان لمساهمات آل روتشيلد المالية للحكومة البريطانية فيما بين ١٨١٥ - ١٨١٨ الأثر كذلك فى تغيير النظرة الانجليزية لليهود.

وقد عكست كتابات القرن التاسع عشر روحًا من التسامح نتيجة العوامل التى أشرت إليها آنفًا، وبرز ذلك بوضوح فـى النهضة الرومانسية لذلك العصر، شعرا ومسرحية ونثراً.(١)

ومـن أبرز الكتابات التـى ظـهرت فى الربع الأول من القرن التاسع عشر رواية Gaston De Blondeville (١٨٢٣) للكاتبة Redcliffe Annred (١٧٦٤-١٨٢٣)، حول المقرض اليهودى Aaron Of lincoln الذى دخل المحكمة ليدلى بشهادته إلا أن الحاضرين احتجوا على ذلك، ولما كان معظم من بالمحكمة مدينًا لهذا اليهودى فقد قُبلت شهادته. وبالرغم من أن دور الشخصية اليهودية فى هذه الرواية كان محدوداً للغاية إلا أنه يعكس ما لليهود من تأثير على المجتمع الانجليزى وبخاصة فى مجال القضاء، هذا التأثير الذى جعلهم يغيرون من مبادئهم ويقبلون شهادة اليهودى على عكس ما اعتادوه فى بلادهم.

أما الكاتب John Galt (١٧٧٩ - ١٨٣٩) فقد إستخدم مادة تاريخية فى روايته The Wandering Jew عام ١٨٢٠، واستمرت الروايات التاريخية فى تلك الفترة وإلى جانبها أخذت تتطور روايات السلوك حيث حلت الواقعية محل الخيال. وقد حاول أتباع هذا التيار الجديد جذب الرواية قريبًا من الحياة، وشد الانتباه إلى الاهتمامات المعاصرة، واتخذ اليهودى فى هذه الروايات مكانًا سلبيًا فى الغالب.

---

(١) نماذج من كتابات هذه الفترة الشعرية والمسرحية في :
Montagu Frank modder, The Jew in the literature of England, p. 109 - 125

ورائدة المدرسة الواقعية هى الكاتبة Mwaria Ewdgeworth (١٧٦٧/١٨٤٩) التى قدمت لنا قصة أسرة ايرلندية فى روايتها Cwastle Rackrent حيث تبدى عدم تعاطفها مع الزوجة اليهودية للسير Kit المالك الجديد للقلعة، تلك الزوجة التى تهتم كثيراً بالمال، ويبدو موقفها من اليهودية واضحًا فى ذلك التعبير الذى كان ينادى به الزوج المرأة اليهودية قبل الزواج جيسيكا الحبيبة والتعبير البديل له بعد الزواج أيتها الاسرائيلية العنيدة وللكاتبة رواية آخرى بعنوان The Absentee، ظهرت عام ١٨١١ ومن بين شخصياتها اليهودى الثرى المرابى مردخاى.

ولها كذلك Moral Tales وفيها ثلاثة يهود أجلاف : سليمان الذى اتهم بالاحتيال وحكم عليه بكنس الشوارع حسب القوانين وهى تهدف من ذلك إذلال الشخصية اليهودية واهانتها، والثانى وهو Grarat الجواهرجى الذى يحتال على تلاميذ المدارس باللوتارى،والثالث وهو Rachub المرابى اليهودى غليظ القلب الذى يحاول قتل اعدائه بنشر الجراثيم المهلكة فى الملابس القديمة التى يبيعها لضحاياه.

كما قدمت لنا قصة طويلة بعنوان Blinds اظهرت فيها شخصية اليهودى المرابى سليمان الذى يفتقد الرحمة فى معاملته ويفرض شروطه القاسية على المقترضين النصارى.

ولم تقدم لنا هذه الكاتبة فى كل ما سبق شخصية يهودية واحدة شريفة، ويبدو أنها قد سارت خلف نموذج اليهودى السلبى التقليدى مع إستخدام وقائع معاصرة، وقد أدركت ذلك فيما بعد فحاولت إصلاح موقفها تجاه اليهود فى روايتها Harrington ١٨١٦ والتى قدم لها والدها الروائى Richard Lovell Edgeworth حيث أشار فى هذه المقدمة إلى رسالة تلقتها إبنته من قارئة أمريكية

يهودية تلومها على تقديمها السلبى للشخصية اليهودية وترجوها معالجة هذه الشخصية بنوع من الايجابية، وقبولاً لذلك، واعتذاراً لسائر اليهود كتبت ابنته هذه الرواية Harrington، ورسمت فيها صورة مضادة تماماً لليهودى الدموى وانتهت إلى أن اليهودى إنسان كسائر البشر.

ايفانهو لسير والتر سكوت :

وأبرز تصوير متعاطف مع الشخصية اليهودية فى أدب الربع الأول من القرن التاسع عشر والذى كان له أكبر الأثر فى من تبعه من الأدباء الانجليز هو شخصية (اسحق اوف يورك) وابنته (ربيكا) فى رواية Sir walter Scott المعروفة باسم Ivanho والتى ظهرت عام ١٨٢٠، وسنقف عندها بشئ من التفصيل حيث اعتمدت عليها كنموذج من الأدب الانجليزى فى هذه الدراسة.

لقد استطاع القارئ الانجليزى الذى لا يعرف شيئًا عن التاريخ اليهودى أن يخوص من خلال هذه الرواية إلى أعماق الرومانسية، وأن يعيش «معاناة هذا الشعب المضطهد فى انجلترا» من خلال قصة اليهودى اسحق وابنته ربيكا.

فصورة سكوت التى رسمها للمرابى اليهودى الذى تحددت ملامحه من خلال نموذج العصور الوسطى قد اصطبغت بتعاطف إنسانى مطلق فى القرن التاسع عشر مما جعل القارئ يتعاطف كذلك مع الجانب الضعيف فى الرواية، وهو الجانب اليهودى.

وقد يتبادر إلى الأذهان بعض التساؤلات : كيف ترجم سكوت للشخصية اليهودية فى هذا العصر ؟ وما هو مظهر اهتماماته فى هذا المقام ؟.

لقد أعلن سكوت[1] أنه قد تأثر بوصف حالة اليهود فى ألمانيا عن طريق أحد أصدقائه الذى إقترح أمامه بأن تكون مجموعة من اليهود محل اهتمامه

---

(١) Montagu Frank modder, ibid ,p. 138 .

مستقبلاً من خلال رواية رومانسية، ويبدو أن هذا الاقتراح قد وجد هوى فى نفس سكوت، ومن ثم بدأ الكتابة بالفعل تحت ضغط تداعى صحته، وحاول آداء مهمته كاملة بالعودة إلى التاريخ المظلم لليهود فى العصور الوسطى . وكانت نتيجة ذلك أن وجد سكوت صعوبة . بالرغم من تعاطفه البين تجاه اليهود فى كسر نمطية الشخصية اليهودية المرابية. فاسحق اوف يورك يحمل فى شخصيته كثيراً من ملامح اليهودى المألوفة . ففى بداية الفصل الخامس يستهله بعبارات من تاجر البندقية لشكسبير وكذلك فى بداية الفصل السادس، أما فى بداية الفصل العاشر فقد استهلها بفقرة من يهودى مالطة، وهذه المقتطفات من عصر اليزابيث لشايلوك وبار باس تعنى أن الكاتب قد وضع نصب عينيه هذه النماذج وهو يرسم لنا شخصية اسحق، وإذا ما قارنا صورة شايلوك عند شكسبير واسحق عند سكوت وجدنا أن الإجحاف الدينى المميز للقرن السادس عشر قد حل محله تسامح كبير فى القرن التاسع عشر.

إن ظهور اسحق وابنته فى رواية سكوت يحرك قلب القارئ تعاطفًا معهما ، بل إن الكاتب لم يتردد فى إظهار عدم التسامح والغلظة التى اتسمت بها المسيحية فى العصور الوسطى.

لقد كان تصوير « ربيكا » مثيراً للشفقة ومحركًا للإعجاب. فهى اليهودية ذات الشعر الأسود الجميل والعينين البراقتين ، ذات الحياء والشجاعة، لا تعرف الخوف ولا اليأس، تواجه كل الشدائد بهدوء وإيمان، فهى نموذج للمرأة اليهودية فى إخلاصها ودفاعها عن شعبها ودينها وشرفها.

كما أظهر اسكوت فى معالجته لشخصية ربيكا تحيزاً وتعاطفًا ورقة لم يجرؤ كاتب من قبله على إظهارها ومع ذلك لم يستطع التصريح بزواج ربيكا من إيفانهو على الرغم من تهيئته للقارئ كى يتقبل مثل هذه النتيجة، وعلى عكس

ما وجدنا عند شكسبير حيث هربت اليهوديه Jessica مع المسيحى.

لقد أعطى سكوت للمرأة اليهودية أبعاداً مثالية أكثر من أية شخصية أخرى حيث وضع فيها كل الجمال والخير الذى استطاع خياله الرومانسى أن يخلقه، كما سعى كذلك إلى صب شخصية الأب المرابى فى قالب إنسانى غير معهود.

ومن خلال دراستنا للشخصية اليهودية كما قدمها سكوت يتضح لنا أنه بالرغم من انتماء أحداث الرواية للعصور الوسطى فإن الصورة التى رسمها سكوت متأثرة بمبادئ وأفكار القرن التاسع عشر، واستطاع سكوت - بنجاح - أن يوظف خلفية العصور الوسطى من أجل استدرار عطف القارئ المعاصر تجاه الشخصية اليهودية، وأصبحت رواية ايفانهو نموذجًا يحتذى من قبل كتاب آخرين.

فالكاتب الانجليزى Horace Smith، (١٩٧٩ - ١٨٤٩)يقلد سكوت فى رواية بعنوان Zillah, atale of the Holy City (ط٢، ١٨٢٨) حيث البطلة اليهودية الفاتنة Zillah .

وجاءت رواية Miriam عام ١٨٣٩ للكاتب Charlotte Anley بنفس مسحة العاطفة التى كتبت بها رواية Zillah .

وفى إطار عرض روح التسامح والتعاطف تجاه اليهودى، والاعجاب بشخصية المرأة اليهودية جاءت رواية The Benevolent Jew عام ١٨٢٣ للكاتب George Walker حيث تقوم اليهودية بتمريض البطل المسيحى، بينما يقرض الأب أمواله ويخصص أرباحه للفقراء من اليهود وغير اليهود، وهى صورة لا تجد لها سنداً من واقع فى التاريخ اليهودى على الإطلاق.

وعندما اعتلت الملكة فيكتوريا عرش انجلترا عام ١٨٣٧، كان فى بلادها ما يقرب من ثلاثين ألف يهودى، منهم عشرون ألفاً فى لندن وحدها، وكان

معظمهم قد بدأ يندمج فى الحياة الإنجليزية سلوكاً وعادات استجابة لدعوة العديد من زعماء اليهود للإندماج فى البيئات التى يعيشون فيها.

وفى نفس هذا العام، فاز اليهودى بنيامين دزرائيلى (١٨٠٤-١٨٨١) بعضوية البرلمان (واستمر لمدة أربعة وأربعين عاماً.. أى حتى وفاته). وخلال كل هذه الفترة لم ينس دزرائيلى أصوله اليهودية، وتمثل ذلك فى رواياته العديدة.

وفى عصر دزرائيلى ظهر Edward Lytion Bulwer (١٨٠٣-١٨٧٣)، والذى عرف باسم Lord Lytton حيث قدم لنا رواية Leila عام ١٨٣٨ وهى «ربيكا» أخرى على الرغم من اعتناقها المسيحية فى النهاية، وتحول والدها إلى الاسلام، وتغلب على هذه الرواية الروح الرومانسية التى زرعها سكوت بروايته الشهيرة ايفانهو.

وفى رواية The Jew's Daughter نجد The Countess of Blessington (١٧٨٩-١٨٤٩) تقع فى تقاليد سكوت الرومانسية من خلال قصة ابراهام سولومون وابنته الوحيدة الجميلة Jessica والتى - كبطلة لهذه الرواية - قد أخذت مكانتها فى المجتمع الإنجليزى كزوجة للوردLevendale وأم سعيدة لثلاثة أطفال.

ويبدو أن الكاتبة الأرستقراطية لهذه الرواية قد ادركت أن ظروف رواية سكوت المنتمية للعصور الوسطى قد تغيرت، ولم يعد الزواج بين اليهودية وغير اليهودى أمراً يستوجب الرفض والمعارضة.

وبنفس روح التسامح وجدنا رواية Joseph the Jew التى كتبها وسترسكوت عام ١٨٥٧ تحكى قصة يهودى يتيم يصل إلى بوابة إحدى المدن الألمانية حيث يرعاه أحد المحسنين المسيحيين ويتعرف فى بيته على فتاة مسيحية كانت فيما بعد - بقوة إيمانها وأخلاقها - سبباً فى تحول يوسف إلى المسيحية لحظة وفاة زوجته اليهودية سارة.

والرواية تعكس وضع اليهودى كشخص غير مرغوب فيه من ناحية ديانته، وإن كان من الممكن قبوله فى المجتمع كإنسان.

وخلاصة القول، أنه بفحص روايات النصف الأول من القرن التاسع عشر، يمكن للقارئ أن يلاحظ أن سنوات النضال من أجل التحرر السياسى قد شهدت اهتماماً أدبياً ملحوظاً بشخصية اليهودى على أيدى الأدباء الإنجليز، وقد استطاعت روايات دزرائيلى بتمجيدها البالغ للعنصر اليهودى أن تساعد على الترويج لنماذج مثالية ووطنية من بين اليهود.

تشارلز ديكنز والمدرسة الواقعية :

فى نفس الفترة التى شهدت محاولات الاعتراف بالحقوق المدنية لليهود فى انجلترا ظهرت لنا رواية تشارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) المعروفة باسم Oliver Twest والتى بدأ نشرها مع العدد الثانى من مجلة Bentley's Miscellany عام ١٨٣٧ واستمرت شهرياً حتى تمت فى اكتوبر عام ١٨٣٨، تلتها طبعة أخرى فى كتاب، ثم ثالثة عام ١٨٤١، وكانت أول طبعة «شعبية» عام ١٨٥٠، وقد سبقت كل طبعة من هذه الطبعات مقدمة للمؤلف.

وزمن القصة يشير إلى طبقة من المجرمين اليهود يمثلها Fagin الذى لا يشير إليه ديكنز كيهودى وإنما كجرم ينتمى إلى طبقة معينة، أعنى أنه لا يريد من إبراز شخصية Fagin اليهودى المساس باليهودية كدين وإنما باليهود المجرمين كطبقة مميزة فى المجتمع تنتشر فى مواخير لندن وحاناتها، والتى اراد ديكنز فى كتاباته أن يطهرها من هذه النماذج.

ومن ثم، فمن السخف أن يذهب نقاد مثل Hilaire Belloc[1] إلى أن ديكنز

(١) المرجع السابق، ص ٢١٨.

يكره اليهود. وإنه لمن سوء الطالع أن يتزامن ظهور Fagin مع حملة اليهود من أجل الحصول على حقوقهم المدنية فى انجلترا على الرغم من عدم وجود أى علامة دينية فارقة تميزه عن غيره من «صعاليك ومطاريد» انجلترا.

إذاً ينبغى أن تؤكد على أن Fagin كان يهودياً لأنه يمثل طبقة واقعية فى المجتمع الانجليزى وأن ديكنز عندما كان يطلق عليه «اليهودى» لم يكن ذلك بسبب دينه ولكن بسبب عنصره على الأصح، وهذا ما عبر عنه ديكنز نفسه فى خطاب له بتاريخ ١٠/٧/١٩٦٣ رداً على رسالة احتجاج وصلته من سيدة يهودية.

وخلاصة القول حول شخصية اليهودى عند ديكنز، أنها لم تكن مستهدفة من قبل هذا الأديب الإنجليزى القدير، فلم يكن له موقف معين تجاه الطائفة اليهودية وهذا ما تؤكده الشخصيات اليهودية الأخرى الت ظهرت فى كتاباته مثل سولومون ايزاك فى Pickwick Papers وكذلك فى رواية Sketches by Boz حيث ظهر الجيتو اليهودى فيها ، ورواية Martin Chuzzlewit وغيرها.

وفى وقت لاحق، يبدو أن ديكنز قد اضطر إلى الاعتذار لليهود علناً عما رسمه فى شخصية Fagin ، فقدم لنا فى Our Mutual Friend (١٨٦٣) مستر Riah اليهودى الدمث الذى يدين بالعرفان لعنصره. وتبدو الموازنة بين المعالجة الرومانسية والواقعية للشخصية اليهودية واضحة بجلاء فى هذه الشخصية عوضاً عن Fagin كاعتذار صريح للجالية اليهودية فى انجلترا، حيث عكست هذه الشخصية كرم الطباع واللطف الجم.

وإذا كان تصوير Fagin فى رأى البعض قد جاء متطرفاً من قبل ديكنز، فإن تصوير Riah يعتبر تطرفًا كذلك، إذ ليس هناك يهودى أو غير يهودى بلا خطايا على نحو ما قدم لنا ديكنز فى هذه الشخصية التى أثارت اعتراض الكثيرين عليها.

لقد ساهم شارلز ديكنز فى تشكيل الصورة المزدوجة لليهودى، فهو قد قدم لنا صورة اليهودى المفسد، المرتكب لكل أنواع الجرائم، وقدم لنا النموذج الآخر، اليهودى الحامى للضعيف واليتيم، وكلاهما ليس له علامة فارقة، فمن الممكن أن يحل محل Fagin أى شقى آخر مع تغيير محدود، كما يمكن أن يحل محل Riah مئات المحسنين الأخيار من غير اليهود، أما تحديدهما كيهود فإنه يعطينا مزيداً من الدقة فى رسم الشخصية.

ومن ناحية أخرى، حاول العديد من الأدباء الانجليز فى منتصف القرن التاسع عشر استغلال المادة الواقعية لهذه الفترة بهدف معالجة المثالب والأخطاء الاجتماعية، ولهذا وجدنا رواية A Romance of Vienna عام ١٨٣٩ للكاتبة Frances Milton Trollope (١٧٨٠-١٨٦٣)تعرض لأوضاع اليهود فى النمسا ووجدنا رواية Alton Locke عام ١٨٥٠ للكاتب Kingsley Charles (١٨١٩ - ١٨٧٥) ترسم صوراً واقعية لفقراء لندن المطحونين، حيث يلقى باللائمة على اليهود والنصارى معًا.

وفى عام ١٨٥٦ قدم لنا Charles reade (١٨١٤ - ١٨٨٤)على طريقة ديكنز الدراماتيكية، ولهدف اجتماعى بحت، شخصية اليهودى الشرقى المتعلم Mr. Levi فى رواية It is never too late to me . ذلك اليهودى الذى سافر إلى الهند وباريس وفينا ولشبونه، وانتهى به المطاف إلى العيش فى منزل مستأجر مع والديه وزوجه، حيث ماتوا جميعًا فى هذا المنزل الواقع فى مدينة Farnsborough، وهنا يأتى مالك جديد للمنزل وهو John Meaddows ويطلب من اليهودى مغادرة المنزل. والمالك هنا ليس بحاجة للمنزل، ولكنه يكره اليهود، ولا يرغب فى وجود أى تعامل مع أى فرد منهم.

ومع تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية لليهود فى انجلترا فى النصف

الثانى من القرن التاسع عشر ظهرت عدة أعمال أدبية تشير إلى الواقع اليهودى، آنذاك وشملت مختلف الأشكال الأدبية من مقال ومسرحية وقصة ورواية.

وكنتيجة لتزايد عدد المهاجرين اليهود هربًا من الاضطهادات الروسية، بدأت تساؤلات جديدة حول يهود انجلترا ــ وكذلك يهود كل بلدان العالم ـ تثير اهتمامات الأدباء، وكان كتاب الفن القصصى بوجه عام أسرع إدراكاً للقيمة الأدبية والمادة الممكنة والمتعلقة بمغامرات وتجارب «الاسرائيليين» وزاد من أهمية هذه الكتابات وجود تشابه بين يهود هذا القطر أو ذاك ما أعطى مزيداً من الواقعية للقصة فى تلك الفترة.

ومن بين أوائل روايات الستينيات من القرن التاسع عشر والتى عالجت أوضاع اليهود فى وسط أوربا ظهرت رواية Nina Balatka للكاتب Anthony-Trollope (١٨١٥-١٨٨٢)والتى نشرت مسلسلة، وعالجت قضية الزواج المختلط فى صورته المعاصرة، متخذاً من مدينة براغ مسرحاً لأحداثها.

وفى رواية لكاتب مجهول وتحت عنوان Count Telki تم عرض الحياة اليهودية فى انجلترا وبأسلوب متعاطف للغاية، ورسمت لنا صورة معاصرة لهذه الحياة بعاداتها وتقاليدها لكاتب زعم أنه عاش داخل الجيتو اليهودى، وإن كنا لا ندرك بعد ما إذا كان هذا الكاتب المجهول يهودياً ام نصرانيًا.

أما فى السبعينيات فقد تزايد تأثير الأثرياء اليهود فى لندن نتيجة نشاطهم ونجاحهم فى مجال التجارة الدولية من خلال الامبراطورية البريطانية الممتدة، وكان لذلك انعكاسه على صفحة الأدب الانجليزى.

ففى رواية للكاتب Anthony Trollope بعنوان The way we live now حاول المؤلف معالجة الفساد المالى المستشرى آنذاك بتقديم نموذج يهودى المانى

ثرى هو Baron Albert Grant الذى لا يرى النجاح إلا فى مقدار ما يجمعه المرء من ثروة، ولا يرى فى الثروة إلا الرب المعبود ، وإن كان المؤلف قد اعتذر فيما بعد عن هذا التصوير للشخصية اليهودية. ويرى Hugh Walpde أن هذه الرواية تعتبر أبرز ما كتب فى انجلترا خلال ١٨٦٠ - ١٨٩٠ حيث تعتبر بحق «رواية الحياة اللندنية».[١]

وفى بداية الربع الأخير من القرن الماضى ظهرت رواية Danial Deronda الشهيرة (١٨٧٦) للكاتبة)Mary Ann EvanS(١٨١٩ ـ ١٨٨٠)، المعروفة باسم George Eliot والتى كتبتها تحت تأثير عميق لروح القوميات ولعلم الأجناس البشرية (الاثنولوجى).

فعندما نشرت هذه الرواية، كان اليهود فى انجلترا يستعدون لدخول انتخابات البرلمان، ولهذا لم يكن الموضوع حول الحقوق السياسية لليهود ،وإنما حول تطور «الحلم الشرقى» عندهم ومن ثم ركزت الكاتبة اهتماماتها فى هذه الرواية على عرض التناقض بين تقاليد الغرب الأوربى وتقاليد الشرق بعامة، واليهود بخاصة وقدمت لنا شخصية هامة من بين شخصياتها لم تلبث ان تدرك أصولها اليهودية مما أدى إلى تحولها إلى وضع روحى جديد انعكس فى تكريس كل العمر والامكانيات من أجل نهضة اليهود وتقدمهم.

إن اختلافات الهوية فى نظر هذه الكاتبة هى أمر هام ينبغى أن يقدر ويحترم، وقد قادها ذلك إلى تقدير الدور اليهودى فى اقتصاد الإنسانية. فاليهود فى نظرها لا يقلون عن سائر الأمم بل على العكس، فاليهودى المثقف Deronda يسعى من أجل مساعدة المرأة الإنجليزية الآثمة.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧٧.

وكمعالجة للمشكلة اليهودية، فإن رواية اليوت لم تفقد الشق الآخر والمتمثل فى برجوازية Ezra وصفقته مع Derondea حول خاتم الماس.

ومما لا شك فيه، أنه كان لنشر هذه الرواية أثر كبير على قادة اليهود وزعمائهم من أصحاب الفكر الصهيونى فى هذه الفترة فقد كانت بمثابة البشير للصهيونية السياسية التى جاء بها هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤)فى كتابه عن الدولة اليهودية بعد عشرين عاماً من نشرها.

لقد وضعت الكاتبة على لسان Mordecai Cohen أهم شخصيات روايتها، أفكاراً والهاماً للسياسة اليهودية القومية التى انبثقت فيما بعد، ويروى أنه بعد أربع سنوات من نشر رواية اليوت، تكونت مدرسة جديدة من الباحثين فى روسيا، ضمت بيريز وجوردن وسمولينسكين وليلينيلوم، أعربوا من خلالها عن رأيهم فى أن الطريق إلى الخلاص يكمن فى الإحياء القومى السياسى لليهود، ووضعوا رواية اليوت أمامهم، وترجموها إلى العبرية مع تزويدها بوجهات نظرهم فيما يتعلق باحتلال فلسطين.

توالت بعد رواية اليوت روايات أخرى أعدت اليهود للانطلاق القومى فى القرن العشرين، من بين هذه الروايات The Tragic Comedians عام ١٨٨٠ والتى كتبتها George Meredith (١٨٢٨ - ١٩٠٩)وتصور لنا المسيح المخلص لليهود فى القرن التاسع عشر.

ولقد عالجت رواية Dorothea Gerard والتى تحمل عنوان Orthodox عام ١٨٨٨ أوضاع اليهود فى بولندا، كما عالجت فى رواية أخرى بعنوان a Rech عام ١٨٩٠ العلاقة بين اليهود والأغيار من خلال تعصب الآباء المقبوت.

وقدمت لنا رواية الأديب Joseph Hatton المسماه By order of the Czar

عام ١٨٩٠ مآسى التجمعات اليهودية خلال اضطهادات روسيا.

وفى رواية بعنوان The limb، ظهرت عام ١٨٩٦ لمؤلف اشار إلى نفسه بحرفى X.L، عرض لنا عادات اليهود وسلوكهم وتقاليدهم الدينية فى المدن الروسية، من خلال تجربة مسيحى نشأ كيهودى وسط اليهود الحسيديم الذين لا يعرفون التعصب.

وفى العقد الأخير من القرن الماضى، تغير تقديم الشخصية اليهودية فى الأدب الانجليزى مع التغيرات السريعة التى طرأت على الأنماط الأدبية آنذاك، وأصبح كتاب القصة والرواية يسعون وراء «ما يطلبه القراء» وما يرونه مثيراً وهاماً، واختفى «العنصر الغامض» فى الشخصية اليهودية ليحل محله «الاستحسان العام» وعلى هذا النمط جاءت قصة George Du Maurier (١٨٣٤ - ١٨٩٦) والمسماه بـ Trilly، تلتها روايته عام ١٨٩٧ تحت عنوان The Martian حيث وجه اهتمامه إلى الصفات المثيرة للإعجاب فى شخصية اليهودية Leah .

ويمكن إيجاز ما سبق فى أن فترة التسعينيات من القرن الماضى قد شهدت العديد من الأعمال الأدبية التى شدت انتباه القراء للغز الشخصية اليهودية، كما وجدت طبقة من الكتاب هاجمت أسلوب اليهود التجارى المادى حيث جسدت الشخصيات اليهودية فى كتاباتهم جانب الشر المتمثل فى الحياة المادية، فهم - على نحو ما قدم لنا مثلا الكاتب William Cobbett - يسمنون على الأرباح التى يبتزونها من العامة الذين لا يعون شيئاً.

ومن ناحية أخرى عالجت، ببعض روايات هذه الفترة أوضاع اليهود المتحررين فى أجزاء من الامبراطورية البريطانية مثل جنوب افريقيا حيث رجال البنوك الذين يمولون الشركات التجارية، ويمدون العالم بالسلع النادرة كالخيول وغيرها.

ومن وجهة نظر بعض الكتاب، نجد اليهودى عندما يثرى فإنه يبدو وقد أثرى سريعاً ثم يستغل قوته من خلال ثروته، وهذا ما عبرت عنه الكاتبة Marie Corelli (١٨٦٤-١٩٢٤) فى رواية Temporal Power عام ١٨٩٧ حيث صورت البلوتوقراطية اليهودية [1] وذلك عن طريق شخصية اليهودى David Jost صاحب إحدى الصحف ذات الأثر الكبير فى البلاد ، والشريك المؤثر فى ملكية ثلاث صحف أخرى.

أما الروايات الرومانسية التى ذاعت فى هذه الفترة فكان معظم كتابها من النساء ووجدت لها سوقًا رائجة بين العاملين فى الكنيسة، والطبقة الوسطى من القراء.

ولعل أكثر روايات تلك الحقبة رومانسية رواية الكاتبة Marie Corelli التى ظهرت عام ١٨٩٥ بعنوان Barabbas, A Dream of The World,S Tragedy وبنيت فى جوهرها على أحداث صلب المسيح، حيث شخصية اللص BarabbaS الذى حل محل المسيح.

وبإلقاء الضوء على كتابات النصف الثانى من القرن التاسع عشر يمكن القول بأن روايات هذه الفترة قد عكست إتجاهات الرأى العام تجاه اليهود ، كما عكست كذلك مظاهر الحياة اليهودية فى مدن انجلترا والجيتو بل وفى أوربا أيضاً، وفى هذا إشارة إلى اهتمام الأدباء بما تقدمه الحياة اليهودية من مادة دسمة لأعمالهم، وربما كان واضحاً من هذه الأعمال أنه حيثما وجد اليهود فثمة مشكلة يهودية بأى نوع من الأنواع.

فالمطبوعات الإنجليزية حول الاندماج اليهودى أو الانعزال، وحول القومية اليهودية، وحول دور اليهود فى السياسة والأعمال، وحول مكانة اليهود فى الحياة

---

(١) البلوتوقراطى هو الشخص الذى يستغل ثروته لبسط نفوذه بكثير من القسوة.

المعاصرة، تشير جميعها إلى المساحة الواسعة التى احتلها اليهود فى الحياة الإنجليزية المعاصرة، وإلى اهتمام مشاهير الأدباء بالشخصية اليهودية بشتى أبعادها.

أما عن القرن العشرين فقد تضاءل الاهتمام بالشخصية اليهودية ولم يعد كما كان وبخاصة حيث لم تعد هناك «مشكلة يهودية» فى بريطانيا، وأصبح من الصعب أن نتتبع أعمالاً أدبية شهيرة تناولت هذه الشخصية ومن ثم نتوقف عند هذا الحد الذى شهد اهتماماً بالغاً باليهود فى الأعمال الأدبية المتعددة التى أشرت إلى بعضها.

المبحث الثانى

الشخصية اليهودية فى رواية ايفانهو

للسير ولتر سكوت(*)

نظرا لتشابك الأحداث. وتعقيداتها فى رواية ايفانهو، ينبغى لنا أن نشير إلى الخلفية التاريخية لهذه الرواية والتى تميزها عدة نقاط أساسية تؤثر على مجرى الأحداث فيها ، بل وتحدد لنا شخصيات الرواية وأدوارها.

(*) ولد سكوت عام ١٧٧١ فى ادنبره ببريطانيا لعائلة طيبة الاعراق وإن لم تكن بذات ثراء، وقد قضى عدة سنوات من طفولته بسبب مرضه فى الريف الانجليزى الهادئ، يقرأ كل كتاب يصل إلى يديه. وكانت إقامته هذه فى إحدى القرى الحدودية بين سكوتلندا وانجلترا والحافلة بقصص الماضى وبخاصة تصص الأمير الاسكتلندى تشارلز ستيوارت ومحاولته عام ١٧٤٥ اعتلاء عرش انجلترا وفشله فى ذلك.

وقد عاد سكوت مرة أخرى إلى ادنبره حيث التحق بالمدرسة الثانوية ، ثم عمل فى مكتب ابيه وهو فى الخامسة عشرة من عمره ليتعلم القانون ولكنه لم يصادف قبولا فى نفسه ، واستمر فى تعليم نفسه بنفسه .

كتب سكوت أول أعماله عام ١٨٠٢ ـ ١٨٠٣ ، وكتب رواية ايفانهو عام ١٨٢٠ وقد عاصر سكوت أحداثاً جليلة فى حياته أبرزها الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وحرب نابليون التى غيرت خارطة أوربا . كما عاصر الثورة الصناعية فى انجلترا وما احدثته من انقلاب فى حياة الشعب الانجليزى .

ومات سكوت عام ١٨٣٢ وترك لنا مجموعة مميزة من الأعمال الأدبية والتى من أهمها رواية ايفانهو .

وسنعتمد فى دراستنا هذه على النسخة الانجليزية التالية : ـ

Sir Walter Scott , Ivanho , with Appendixes and Notes by A.J Brayley ,Longmans , London , 1964

وقد وجدت ترجمة دقيقة لهذه الرواية قام بها مراد الزمر وراجعها مصطفى حبيب ونشرتها دار نهضة مصر بالقاهرة عام ١٩٦٦ فى سلسلة الألف كتاب التى تصدر بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

واعتمدت فى دراستى هذه على الأصل الإنجليزى المشار إليه آنفاً ، وعلى هذه الترجمة العربية بعد مقابلتها بالأصل الإنجليزى ، على أن تتم الإشارة عند كل اقتباس إلى موضعه فى النص الإنجليزى والترجمة العربية .

ومن هذه النقاط مايلى :

أـ الغزو النورماندى :

كان الدوق وليام النورماندى هو آخر الفاتحين لانجلترا عام ١٠٦٦ حيث سبقه الرومان والساكسون وغيرهم. وقد اتسمت شخصية وليام بالقوة والصرامة تجاه معارضيه بفضل النظام الإقطاعى الذى ساد فى ذلك الوقت.

وفى فترة ملكه، ساد النظام بين «اللوردات» ـ وكانوا يسمون بالنبلاء أو البارونات ـ الذين جاءوا من نورمانديا. وقد نشبت حرب أهلية أيام الملك ستيفن، ولم تلبث أن استقرت الأمور فى عهد الملك هنرى الثانى الذى استطاع أن يسيطر على الأوضاع تماماً. وحاول الساكسون الثورة ضد الغزاة إلا أنهم فشلوا واضطروا للتعايش مع النورمانديين كشعب واحد، وقد عكست لنا رواية ايفانهو الكراهية التى حملها كل فريق تجاه الآخر.

وفى عام ١١٨٩ خلف ريتشارد الأول اباه هنرى، حيث تدور أحداث «ايفانهو» وربما استفاد سكوت كثيراً من رغبته فى مساعدة الساكسون فجاء وصفه دقيقاً وصادقاً إلى حد كبير.

وبعد وفاة ريتشارد تولى أخوه يوحنا الملك، وكان سيئاً للغاية، مما أثار النبلاء (البارونات)ضده، واجبروه على توقيع ما يعرف بـ «ماجنا كرتا»[1] التى

---

(١) ماجنا كرتا تعنى العهد الاعظم وقد تم توقيعه بين الملك يوحنا (١١٩٩ ـ ١٢١٦) والبارونات فى اعقاب تمرد البارونات على الملك نتيجة الضرائب الباهظة التى فرضها ومحاولته اجبار البارونات على تزويج بناتهم للشعب ، وكان ذلك عام ١٢١٥ .

ويتلخص مضمون هذا العهد فى أن يلتزم الملك بعدم الاعتداء على الممتلكات والحرية الشخصية لأىٍ من رعاياه .

انظر أيضاً : على جريشة ، حرمات لا حقوق ، حقوق النسان فى ظل الاسلام دراسة مقارنة، دار الاعتصام، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٢١ .

انظر : The Encyclopaedia Americana, International Edition, New York, 1976

اشتملت على شروط وقوانين أفضل، وشجعت الانجليز على الثورة ضد أى شخص يستخدم الأساليب غير الشرعية فى الحكم.

وفى عام ١٢٠٤ فقد الملك يوحنا نورماندیا والتى منها هاجم الدوق ويليام انجلترا، ولم يعد هناك ثمة فروق بين النورمانديين والإنجليز. وفى عهد كل من هنرى الثالث وادوارد الأول مَثّل المدن والمقاطعات المختلفة أعضاء فى المجلس الكبير، وهو الهيئة التى كانت تتحدث باسم انجلترا كلها والذى كان بداية للنظام البرلمانى فيما بعد.

ب - النظام الاقطاعى :

تحت هذا النظام كانت انجلترا مقسمة إلى اقطاعيات. وقد تم تقسيم معظم الأراضى على يدى وليم الفاتح للنبلاء النورمانديين، وإن كان قد سمح لبعض الساكسون بالحفاظ على ممتلكاتهم مقابل دفع جزية معينة، ولم تكن هناك أى أرض بلا مالك وكان للملك مقاطعات فى كل أرجاء البلاد، واحتفظ لنفسه بغابات شاسعة، يليه النبلاء والفرسان [١].

وربما خصصت مقاطعة صغيرة للأبرشية، [٢] وكانت عبارة عن قرية تضم فى الغالب كنيسة ومنزل اللورد تحيط به حديقة، ومنزل القس، وغابات القرويين ثم يلى ذلك الأراضى التى يشترك فى ملكيتها كل فرد من أجل زراعة الذرة وهى أرض مشاع ترعى فيها الأغنام، وتضم كذلك غابات تتجمع فيها الخنازير.

وكان بعض القرويين أحراراً، يدفعون إيجاراً للمالك مقابل ممتلكاتهم، ولهم الحق فى الانتقال إلى أى منطقة أخرى يرغبونها. وكان هناك العبيد الذين لاحق

---

(١) كانت كلمة Knight والتى تعنى الفارس أقل من الناحية الطبقية عن Baron ، ولكنها ذات أهمية خاصة فى نفس الوقت ، إذ تمثل الشجاعة والرغبة فى حماية الضعيف .

(٢) إحدى وحدات التقسيم الإقليمي الإدارى فى انجلترا .

لهم فى مغادرة الإقطاعية، وعليهم العمل يومين أو ثلاثة أيام أسبوعياً فى أرض المالك، وكان يسمح لهم بامتلاك أشياء بسيطة، إلا أن حياتهم قد اتسمت بالقسوة والخشونة وكانوا يحصلون على بعض الحماية من الحاكم فى ذلك الوقت. بالإضافة إلى هؤلاء جميعاً كان هناك الخدم.

وفى عام ١٠٨٦ وضع وليام كتاباً سجل فيه كل الإقطاعيات فى انجلترا مما سهل أمور إدارة البلاد، واعطى الملك فكرة عن عدد الفرسان الذين يمكن أن يتوقع مشاركتهم من قبل كل إقطاعى فى الدفاع عن البلاد كجزء من الخدمة الواجبة عليه.

جـ ـ الخارجون على القانون :

كان من يعجز عن دفع الدية لأهل القتيل يفر هارباً من وجه القانون، وقد تجمع هؤلاء الفارون مع غيرهم على مر الزمن، وكونوا طائفة مستقلة لها نظامها الخاص، ولم يكن هؤلاء الخارجون عن القانون أشراراً تماماً بل كان من بينهم من يستحق الشفقة لا اللوم، ولم تكن تصرفاتهم وافعالهم بأسوأ من تصرفات البارونات فى ذلك الوقت.

ونظراً لظروف معيشتهم فى مجموعات. فقد كان من السهل أن يساعد كل منهم الآخر، كما كان من الصعب أن يقبض على أحدهم لمعرفتهم الجيدة بطرق الاختفاء فى الغابات.

د ـ الكنيسة :

كانت الكنيسة فى ذلك الوقت قوية وموحدة للناس فى كل أوربا وعلى رأسها البابا فى روما ويتمتع بسلطات غير محدودة على العالم بأسره، ولم يكن بإمكانه فقط خلع الملك من الكنيسة وتبديد أمله فى الحياة الأبدية، بل كان

كذلك بإمكانه الحرمان من الزواج أو حتى من الدفن لبعض الأشخاص.

وكان الرهبان يشكلون جزءاً هاماً من الكنيسة حيث عاشوا معاً في ظل طاعة للنظام القائم موجهين اهتمامهم لمتاع الروح لا الجسد، ومن ثم كان عليهم أن لا يعيشوا حياة أسرية أو مالية خاصة، فهم يأكلون ويشربون ويلبسون ببساطة للغاية، ويكثرون من الصلوات وقراءة الكتب المقدسة.

كما كانت هناك راهبات من بين النساء، تسرى عليهم نفس المحظورات السارية على الرجال.

وفي العصر المظلم الذى تصوره لنا «ايفانهو» حافظ الرهبان على الحضارة حية حيث سجلوا لنا كبريات الأحداث وأداروا المدارس والمستشفيات ورعوا الفقراء، كما عملوا بمهارة فى الأراضى ورعى الأغنام وكان الرهبان الإنجليز من أكبر تجار الأصواف فى انجلترا.

وللكنيسة فى انجلترا ممتلكاتها الخاصة من الأراضى فى ظل نظام الإقطاع السائد، كما كانت تتلقى الهدايا والهبات، وقد دفعتهم هذه الثروات إلى الانحراف، كما حركت الغيرة فى نفوس الملوك والأمراء الإقطاعيين حيث كانوا يفقدون مدد الفرسان عندما تسيطر الكنيسة على إقطاعية جديدة.

هـ - الحروب الصليبية :

هى غزوات حربية تمت فيما بين ١٠٩٥-١٢٧١ على أيدى المسيحيين فى أوربا بهدف ظاهرى يتمثل فى الاستيلاء على القدس من أيدى المسلمين بقوة السلاح.

وقد كانت هناك ثمانى حملات صليبية، استولوا خلالها على القدس ثم ما لبثت أن عادت المدينة المقدسة إلى المسلمين على أيدى صلاح الدين.

وكانت ثالث حملة فى الفترة الواقعة بين عامى ١١٨٩ ـ ١١٩٢، وحارب فيها الملك ريتشارد حيث اضطر جيشه للعودة بسبب نقص المياه والطعام، ولكن ريتشارد عقد اتفاقاً مع المسلمين تمكن المسيحيون بموجبه من الحج إلى الأماكن المقدسة بسلام.

وقد بدأت هذه الحروب متخذة طابعاً دينياً ومن ثم حظيت بتأييد الشعوب الأوربية لها، ولكن هدفها الحقيقى كان اقتصادياً بالدرجة الاولى، وقد فشلت فى تحقيق أهدافها الدينية المزعومة أو الاقتصادية الخفية، وبقيت القدس فى أيدى المسلمين، ودفعت أوربا الثمن غالياً من أبنائها وأموالها.[١]

وعلى ضوء هذه الملابسات التى قدمت لها بإيجاز، تدور أحداث رواية ايفانهو لترسم لنا نماذج واقعية للعلاقات النورماندية ـ الساكسونية وللنظام الاقطاعى بسوءاته ومثالبه وللخارجين على القانون وسلطاتهم، وللكنيسة دورها وانحرافاتها، وللحروب الصليبية وانعكاساتها على المجتمع الأوربى.

وكان اليهود فى أوربا آنذاك من ذوى الأموال، والذين اشتهر عنهم التعامل بالربا مع المسيحيين، ويعكس دورهم المؤثر فى المجتمع الإنجليزى ظهور أول شخصياتهم وهو «اسحق أوف يورك» مع بدايات الأحداث وفى الفصل الخامس من فصول الرواية التى بلغت أربعة وأربعين فصلاً.

ولا يعنينا فى هذا المقام أن نتناول هذه الفصول بالعرض والتحليل إذ أن عملاً كهذا سيباعد بيننا وبين الهدف الأساسى من دراستنا، ولكن الأهم هنا أن نحدد وضع اليهود من أحداثها، والذى سنعالجه من خلال محورين اثنين أولهما:

---

(١) حول هذه الحروب أنظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣.

الشخصية اليهودية فى نظر الأوربى وثانيهما سمات وملامح هذه الشخصية، كما رسمها لنا الكاتب الانجليزى سير والتر سكوت.

المحور الأول : الشخصية اليهودية فى نظر الأوربى المسيحى :

عكست رواية ايفانهو نظرة الأوربى المسيحى لليهودى وهى بلا شك نظرة سلبية تماماً وإن أبدى الكاتب تعاطفه معه، وبرز هذا بوضوح مع أول مشهد يظهر فيه اليهودى.

ففى الفصل الخامس الذى قدم له سكوت باقتباس من تاجر البندقية لشكسبير يعبر عن تعاطف الكاتب مع اليهودى، ففى هذا الفصل تسوق الأقدار أول شخصية يهودية وهى «أسحق أوف يورك » إلى مجلس من المسيحيين، لكن الخادم لا يأذن لليهودى بالدخول ويسأل سيده :

«إنه يهودى يسمى نفسه «اسحق أوف يورك » فهل من اللائق أن تأذن له بالدخول إلى القاعة؟[1]

فعدم الاختلاط باليهودى والابتعاد عنه هو من سمات الموقف المسيحى الأوربى تجاه اليهود ، ونجد صدى ذلك فى كثير من العبارات التى وردت فى ايفانهو :

«وبينما كان اسحق واقفاً هكذا منبوذاً من الجمع كله نبذ سائر أمم الأرض لجنسه، يبحث عبثاً عن ترحاب أو مكان يسكن اليه....[2].

«ان الخجل يأخذ الساكسونيين والنورمانديين على السواء من صحبة الإسرائيلى.... ».[3]

(١) النص الانجليزي ص ٣٥ ، الترجمة العربية ص ٥٦ .

(٢) النص الانجليزى ص ٣٧ ، الترجمة العربية ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٣) النص الانجليزى ص ٥٠ ، الترجمة العربية ص ٧٦ .

حتى إذا سار اليهود بين المسيحيين «فعليهم أن يسيروا فى مؤخرة الركب كله».[١]

وإذا كان هذا هو موقف المسيحى من مجرد السير مع اليهودى، فإن موضوعاً كالزواج من اليهودية هو ضرب من ضروب المستحيل.

«هذا هو الحق، أأتزوج من يهودية ؟ ياللعار! لن يكون ذلك حتى ولو كانت ملكة سبأ».[٢]

وقد تشاء الأقدار أن تسدى فتاة يهودية حسناء جميلاً لمسيحى، لكن ذلك أيضًا لا يغير من نظرة هذا المسيحى إلى اليهود :

«... فإن اليهودية الحسناء لم تتوقف عن بذل الرعاية فى وفاء وفى غير ملل لسلامة جريحها وبرئه، رغم أنها كانت تحس بأنه ينظر إليها كإحدى بنات جنس منبوذ، من العار أن يقيم معها علاقة إلا ما كانت تدعو إليه الضرورة».[٣]

ويبلغ الازدراء ذروته، عندما يَعُفُّ المسيحى عن ذكر اسم إحدى سيدات قومه الشريفات فى منزل يهودى :

«والآن يا طبيبى العطوف، دعينى أعرف شيئًا عن أنباء الخارج. ماذا عن الساكسونى النبيل سيدريك وآل داره ؟ ماذا عن الليدى الجميلة ثم توقف وكأنه غير راغب فى ذكر اسم روينا فى منزل يهودى، ثم استرسل قائلاً عنها : تلك الفتاة التى لقبت بملكة المهرجان».[٤]

---

(١) النص الانجليزى ص ١٦٥ ، الترجمة العربية ص ٢٤٨ .

(٢) النص الانجليزى ص ٢٠٦ ، الترجمة العربية ص ٣١٠ .

(٣) النص الانجليزى ص ٢٤٩ ، الترجمة العربية ص ٣٧٨ .

(٤) النص الانجليزى ص ٢٥٠ ، الترجمة العربية ص ٣٨٠ .

وربما يصل الأمر إلى الخوف من ملامسة اليهودى للمسيحى، وهذا ما يفهم من الفقرة التالية :

«أما اسحق الذى زالت عنه نصف آلامه عند ما علم أن ابنته لا زالت على قيد الحياة، وأنه أصبح من المستطاع افتداؤها، فقد ألقى بنفسه عند قدمى الخارج عن القانون ذى المروءة والنخوة ومرغ لحيته فى حذائه وهو يحاول أن يقبل طرف عباءته الخضراء، فارتد الزعيم إلى الوراء نائياً بنفسه عن يد اليهودى دون أن يخفى بعض إمارات الازدراء» [١].

بل هناك ما هو أشد وأنكى. يقول أحد الخارجين على القانون :

«حسناً إذن أيها اليهودى، بما أنى سأزج بنفسى فى هذا الأمر، فدعنى استخدم أدوات كتابتك، مع أنى على استعداد لأن أوثر الصوم أربعاً وعشرين ساعة على أن أكتب بقلمك، ولكن أين لى من قلم آخر» [٢].

وليت الازدراء قاصر على النبلاء والأشراف فى معاملاتهم مع اليهود، بل هو سمة عامة من سمات تعامل المسيحى - أيا كان وضعه - مع اليهود. فها هو جيرث، راعى الخنازير، يعبر عما فى أعماقه تجاه اليهودى وعلى نحو ما صوره لنا سكوت فيما يلى :

«كان جيرث - الذى كانت حرفته تضفى عليه شيئاً من الاهتمام فى انجلترا الساكسونية كحرفة (ايمايوس) فى (ايثاكا) مع أن الناس ينظرون إليه فى أيامنا هذه نظرة فيها ازدراء - قد أحس بأن مهانة قد لحقت به من تلك اللهجة الآمرة التى صدرت عن الحاج. وقال وهو يرفع نفسه عن مرفقيه ناظراً إلى اليهودى نظرة فيها امتهان كثير دون أن ينهض من فراشه :

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٣٠٦ ، الترجمة العربية ، ص ٤٦٧ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٥٤ ، الترجمة العربية ، ص ٨٣ .

أيرحل اليـهودى عن (رودز وود) فـى صحبـة الحاج ويصـيبـه من وراء ذلك نفع ؟ »[١].

والمتـدينون من المسيـحيـين لهم نفس الإتجاه العام فى ازدراء اليـهودى وكان المفروض أن تكون تصرفاتهم أكثر عدلاً وانصافاً :

«انقضى نصف الساعـة وكلاهما (الحاج واليهودى) صامت صمت القبور وكأن الحاج لا يتحدث إلى اليهودى ازدراءً منه إلا فى حالة الضرورة القصوى ».[٢]

ولِمَ لا يفـعل المتـدينون المسـيـحـيـون ذلك، وهم جـمـيـعـاً يرون فى ازدراء اليهودى واحتقاره فريضة دينية ؟ !.

«لقد كان النورمانديون والساكسونيون والدانمركيون والبريطانيـون مع شدة بغضاء كل جنس منهـا للآخر، يتنافسون على الإمعان فى ازدراء شعب يعتبر كرهه وقذفه واحتقاره وسلبه واضطهاده من التعاليم الدينية... »[٣].

ولعل أروع وصـف يعبـر بصـدق عن ازدراء المسـيـحى لليـهـودى، مـا أورده سكوت بإيجاز فى قوله :

« ... وأسدى النصح لليـهودى قـائلاً أن عليـه ألا ينسى أن كل الثروة التى جمعها بامتصاص دماء فرائسه قد زادته زهواً فأصبح كعنكبوت منتفخ لا يؤبه له طالما كان قابعاً فى ركنه، ولكنه يسحق إن اجترأ على الخروج إلى النور »[٤].

هذا التـشبيـه الرائع، له دلالات كـثيـرة، ويقـدم لنا - رغم إيجـازه - الرؤية

(١) النص الانجليزي ، ص ٥٠ ، الترجمة العربية ، ص ٧٧ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٥٤ ، الترجمة العربية ، ص ٨٣ .

(٣) النص الانجليزي ، ص ٥٣ ، الترجمة العربية ، ص ٨٠ .

(٤) النص الانجليزي ، ص ٦٢ ، الترجمة العربية ، ص ٩٤ .

المسيحية الأوربية لليهودى، فهو مصاص للدماء، ومع ذلك ليس بذى قيمة، وإن مكانه فى الظلام، وإذا فكر فى الخروج إلى النور، فمصيره الهلاك.

ولا أجد بعد ذلك ما يمكن أن يعبر عن موقف المسيحى تجاه اليهودى من هذه الزاوية، الازدراء وعدم الاختلاط، وإن حفلت الرواية بعشرات العبارات والمواقف التى تؤكد هذا الإتجاه [١].

أما إذا حل اليهودى فى مجتمع مسيحى، فهو دائمًا مثار للسخرية والاستهزاء، وهذا ما صوره لنا ولتر سكوت فى روايته :

ها هو (وامبا) المهرج المسيحى، يعرف أن اليهودى يأنف من الخنزير حيث تحرمه شرائعه، ولكنه يعمد إلى الاستهزاء به والسخرية منه لإضحاك الجالسين :

«حسناً ! أنا الذى سأفعل ذلك. قال هذا وهو يدفع نحو لحية اليهودى بفخذة من لحم الخنزير، أخرجها من تحت عباءته.....

رأى اليهودى ازدراء القوم لبنى جنسه معلنًا تحت أنفه عندما رفع المهرج سيفه الخشبى فوق رأسه فتراجع اليهودى، وزلت قدمه، ثم هوى إلى أسفل الدرج، وأصبح اضحوكة للمشاهدين الذين ضجوا بالضحك ساخرين، وشاركهم فى هذا الأمير يوحنا وحاشيته وهم يضحكون من أعماق قلوبهم» [٢].

---

(١) انظر على سبيل المثال فى النص الانجليزى ، ص ٥٤ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٨ .

وفى الترجمة العربية : ص ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ٢١٢ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٤٠٠ ، ٤٥٢ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٩٤ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٥٠ ، ٥٦٣ .

(٢) النص الانجليزي ، ص ٦٨ ، الترجمة العربية ، ص ١٠٢ .

ولا يتورع رجل الدين المسيحى عن السخرية من اليهودى والاستهزاء به، مستغلاً فى ذلك نصوص الكتاب المقدس، فكل يسخر حسب ثقافته وعلمه.

يقول رئيس الدير لاسحق اليهودى ساخراً منه :

«وأى مصير تظنه أن يكون لقومك الملاعين غير هذا المصير ؟ ماذا، ألم يقل الكتاب المقدس عنكم : لقد نبذوا كلمة الله المنزلة ؟ ألم يقل : أن عقولهم خاوية ؟ ألم يرد به : سأهب نساءهم لقمة سائغة للغرباء ؟ (كما لفارس المعبد فى حالتنا هذه)، وأن كنوزهم لغيرهم (كما فى حالتنا لهؤلاء السادة الشرفاء) ؟، فصدرت عن اسحق زفرة عميقة، وبدأ يعتصر يديه ويعود إلى ما كان عليه من كآبة ويأس، ولكن زعيم الرجال انتحى به جانباً »[1].

أما اضطهاد اليهود فقد كان على مر التاريخ : قديمه وحديثه ، سمة مميزة للمجتمعات المسيحية بمذاهبها وعقائدها المختلفة.

وقد رسم لنا سكوت جوانب من هذا الاضطهاد الذى شهده اليهود فى تاريخ بلاده، مجملة فى بعض الأحيان، ومفصلة فى البعض الآخر. يقول سكوت :

«... فليس هناك كائن حى على وجه الأرض أو فى الماء أو الهواء كان موضع اضطهاد شامل لا ينقطع، لا رفق فيه ولا هواده مثلما كان اليهود يلقونه فى تلك الحقبة من الزمان، لانهم وما يملكون كانوا عرضة لجميع أنواع الثورات الشعبية لأتفه الأسباب وأبعدها عن الإدراك ولأغرب الإتهامات وأقلها نصيباً من الصحة » [2].

ومن صور الاضطهاد التى بينها لنا سكوت قوله :

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٣٠٦ ، الترجمة العربية ، ص ٤٦٨ .

(٢) النص الانجليزي ، ص ٥٢ ، الترجمة العربية ، ص ٨٠ .

«ومن القصص المعروفة عن الملك جون (يوحنا) أنه القى بيهودى ثرى فى سجن بإحدى القلاع الملكية وأمر بأن تنتزع كل يوم إحدى أسنانه، وبعد أن أصبح فك الاسرائيلى التعس نصف خاو، رضى بأن يدفع مبلغاً من المال كان الطاغية يهدف إلى أن يأخذه منه غصبًا » [١].

وإذا كان المشهد السابق من الملك لأحد اليهود، فاضطهاد غير الملوك لليهود فظيع أيضاً، وهذا ما قاساه اسحق أوف يورك :

«إذا ما تركنا الزعيمين الساكسونيين يعودان إلى مأدبتهما بعد أن استجاب فضولهما المكتئب لنداء شهيتهما التى لم تنطفئ تمامًا، فعلينا أن ننتقل إلى اسحق أوف يورك الذى زج به فى سجن أشد قسوة، إذ ألقى باليهودى المسكين فى أحد أقبية القصر، وينخفض كثيراً عن مستوى سطح الأرض، شديد الرطوبة وأكثر انخفاضاً من الخندق نفسه، وكان الضوء الوحيد يتسلل إليه من كوة أو اثنتين تعلوان كثيراً عن متناول يد الأسير، وحتى فى ساعة الظهيرة لم تكن هاتان الكوتان لتسمحا بتسرب أكثر من ضوء معتم خافت غير مستقر، كان يتحول إلى ظلام دامس قبل أن يفتقد سائر القصر نعمة النهار بوقت طويل. ومن جدار السجن تدلت سلاسل وأصفاد صدئه خالية، كانت تغلل سجناء من قبل، يخشى من محاولاتهم العنيفة للهرب، وفى حلقات إحدى هذه المجموعات من القيود، كانت هناك عظمتان باليتان يبدو أنهما كانتا فى وقت ما لساق بشرية، وأن أحد المسجونين لم يترك ليموت هنا فحسب، ولكن ليتآكل حتى يصبح هيكلاً عظميًا » [٢].

هذه صورة رسمتها ريشة الكاتب سكوت، ليعبر عما كان يلاقيه اليهود من

---

(١) النص الانجليزى، ص ٥٣ ، الترجمة العربية ، ص ٨١ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ، الترجمة العربية ، ص ٢٧٩ .

اضطهاد على أيدى ابناء عصره، أكملها بصورة أخرى كانت من نصيب اسحق أوف يورك أيضاً على يدى فرونديف الذى يسعى لابتزاز اليهودى قائلاً :

«أترى يا اسحق تلك القضبان الحديدية المحماة فوق الفحم المتوهج ؟ سترقد على هذا الفراش الدافئ بعد أن تنتزع عنك ثيابك وكأنك ستستلقى على فراش من الريش الناعم، وسيحافظ أحد هذين العبدين على بقاء اللهب مشتعلاً من تحتك، بينما يلقى ثانيهما بالزيت على أطرافك الشريرة حتى لاتصبح شواء. والآن اختر بين مضجع وهاج كهذا، وبين أن تدفع ألف رطل من الفضة. اقسم برأس أبى أنه ليس أمامك أى سبيل آخر للخيار » [1].

واضطهاد النصارى لليهود نابع من إيمان وعقيدة، يقول الطبيب اليهودى ناثان عن المسيحى بومانوار :

«إن هذا الرجل المتعالى قد ألقى بقفازه فى وجه ابناء يهوذا على وجه خاص، كما ألقى داود المقدس بقفازه فى وجه ايدوم، وهو يرى أن فى قتل اليهودى مذاقاً حلواً وثواباً عميماً، لقد نطق كفراً وزوراً حتى عن مجانى عقاقيرنا وكأنها من استنباط الشيطان، فليحق به خزى الله » [2].

ويوضح لنا سكوت أن من بين أسباب الاضطهاد يكمن العامل الدينى المسيحى، فاليهودية فى حد ذاتها هى من عوامل اضطهاد أتباعها :

«وقف إسحق عند الباب الخارجى ليفكر فى وسيلة الدخول بطريقة يستدر معها الرضى، إذ أنه كان يعلم حق العلم أن التعصب الدينى الشديد للطائفة ليس أقل خطورة على بنى جنسه التعس من فجور ابنائها الدنئ، وأن ديانته

---

(١) النص الانجليزي ، ص ١٨٩ ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٤ .

(٢) النص الانجليزي ، ص ٢٣٢ ، الترجمة العزبية ، ص ٤٩٣ .

ستكون موضع كراهية واضطهاد فى الحالة الأولى، كما أن ثراءه سيعرضه فى الثانية إلى اغتصاب لاهوادة فيه» [١].

ويقدم الفصل الثالث والأربعون[٢] كله من رواية ايفانهو نموذجاً من نماذج الاضطهاد المسيحى لليهود ممثلاً فى محاكمة اليهودية الحسناء ربيكا ابنة اسحق، تلك المحاكمة الظالمة الغاشمة، التى ساهم عرض سكوت لها بهذا الأسلوب فى استدرار عطف القارئ وميله لمؤازرة اليهودى.

ولا أجد أبلغ ما يمكن أن يعبر عن وضع اليهود فى المجتمع المسيحى الأوربى على نحو ما صورته رواية ايفانهو من قول ربيكا «إن اليهود أصبحوا يوطئون بالأقدام كالحشائش المجزوزة يلطخهم رغام الطرقات وأقذارها» [٣].

ومن ناحية أخرى، فإن المسيحى الأوربى يحتفظ بنعوت ثابتة ومحددة للشخصية اليهودية.

فاليهودى فى نظره دائماً كلب وكافر ولعين، وفى كثير من الأحيان لا يكتفى المسيحى فى منح اليهودى لقباً من هذه الألقاب البذيئة، بل يتكرم عليه باثنين منها فى وقت واحد.

فاليهودى كلب كافر[٤] unbelieving do

---

(١) النص الانجليزي ، ص ٣٢٣ ، الترجمة العربية ، ص ٤٩٥ .

(٢) انظر النص الانجليزي ، ص ٤٠٩ ـ ٤٢٠ ، الترجمة العربية ، ص ٥٦٤ .

(٣) النص الانجليزي ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ ، الترجمة العربية ، ص ٥٦٤ .

انظر مشاهد اخري من اضطهاد اليهود في النص الانجليزي ، ص ٩٣ ، ١٤٥ ، ١٩٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٣٦ ، ٣٥٧ ، وفي الترجمة العربية ص ١٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٨٩ ، ٤٩٢ ، ٥١٤ ، ٥٤٦.

(٤) انظر علي سبيل المثال : النص الانجليزى ، ص ٤٣ ، ٤٧ ، ٩٥ ، الترجمة العربية ، ص ٦٧ ، ٧٢ ، ١٤٢ .

وكلب لعين[١] accursed dog

وهو خنزير[٢]، وكافر[٣]، وكلب[٤]

فهذه الألقاب، هى الأسماء المفضلة والمحببة لليهودى فى نفس المسيحى الأوربى وتكررت مراراً على صفحات الرواية.

وإذا أضفنا إلى ما سبق ما اتصف به اليهودى فى المجتمع الأوربى من احتراف للسحر والشعوذة [٥]، تكون النظرة المسيحية الأوربية للشخصية اليهودية قد اكتملت أبعادها على نحو ما قدمنا وهى نظرة سلبية للغاية، ساهمت فى تشكيلها أبعاد عقيدية وملابسات اجتماعية وليدة التعايش اليهودى الشاذ فى هذه المجتمعات.

المحور الثانى : ملامح الشخصية اليهودية :

على الرغم من كثرة الأحداث وتداخلها فى رواية ايفانهو لولتر سكوت فإن كاتبها قد استطاع أن يرسم لنا ملامح وسمات الشخصية اليهودية كما عاصرها وعرفها فى مجتمعه الأوربى المسيحى على النحو التالى : ـ

حب المال :

من أبرز السمات التى قدمتها لنا هذه الرواية، تلك العلاقة الفطرية بين اليهودى والمال.

---

(١) انظر على سبيل المثال : النص الانجليزى ، ص ١٨٨ ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : النص الانجليزى ، ص ٣٥ ، الترجمة العربية ، ص ٥٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال : النص الانجليزى ، ص ٢٩٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، الترجمة العربية ، ص ٤٥٢ ، ٥٠٣ ، ٥٢٦ .

(٤) انظر على سبيل المثال : النص الانجليزى، ص ٣٠٣، ٣٢٩، الترجمة العربية، ص ٤٦٢، ٥٠٤.

(٥) انظر النص الانجليزى ، ص ٢٤٥، ٣٣١، ٣٣٣، الترجمة العربية، ص ٣٧٣، ٥٠٧، ٥١١ .

قد لا يوجد من بين البشر من لا يحب المال، ولكن أن يصبح هذا الحب مسيطراً على تصرفات الفرد ، ومهيمناً على وجدانه ومشاعره وأحاسيسه، بمعنى أن يتحول إلى حالة مرضية، فهذا هو ما لازم اليهود فى كثير من المجتمعات، وما عكسته لنا أحداث الرواية.

يقول سكوت :

«إن الشجاعة المستكينة التى يدفعهم إليها حب الكسب كانت تبعث باليهود إلى تحدى الشرور التى كانوا يعرضون لها فى سبيل الأرباح الباهظة التى كانوا يستطيعون الحصول عليها فى إقليم ثرى بطبعه كانجلترا »[١].

فالفقرة السابقة تبين لنا إلى أى مدى سيطر المال على مكونات الشخصية، فدفعها إلى تصرفات غير مألوفة فيها . فعلى الرغم من اتصاف اليهودى بالجبن والخوف سواء فى هذه الرواية أم فى غيرها ، وسواء فى هذا الأدب أم فى غيره، فإن حب المال يبعث فى نفس اليهودى نوعاً من الشجاعة، لم تألفها الشخصية اليهودية على وجه العموم.

فحب اليهودى للمال كما عبر عنه سكوت، هو حب بالسليقة[٢]، وليس وليد ظروف يمكن أن تغير من هذه الطباع وتلك الصفات.

وفى أحد المشاهد الرائعة التى رسمها سكوت للعلاقة الأزلية بين المال واليهودى، استطاع أن يقدم لنا داخل المشهد الواحد تعبيراً للحالة النفسية التى تنتاب اليهودى حالة تعامله مع المال، وصورة أخرى ساخرة من هذا التعامل المزدرى.

---

(١) النص الانجليزي ، ص ٥٣ ، الترجمة العربية ، ص ٨١ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٩٦ ، ٩٧ ، الترجمة العربية ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

ففى هذا المشهد يقول سكوت :

«...كانت يد اليهودى ترتعد جزلاً وهو يطوى السبعين قطعة ذهبية الأولى، وجعل يقلب العشرة الباقية بعميق فكر، يتوقف حيناً ويتمتم بضع كلمات حيناً آخر عندما كان يأخذها من فوق المائدة ويسقطها فى كيسه قطعة وراء أخرى. يبدو أن حرصه على المال كان فى صراع مع ما فى طبيعته من خير، ويسوقه إلى أن يضع النقود قطعة بعد أخرى فى داخل الكيس، بينما كانت عاطفة الجود تحاول دفعه لإعادة بعضها إلى ذلك الذى أسدى إليه الجميل أو كعطاء لرسوله وكادت كلماته أن تكون كما يأتى :

واحد وسبعون، اثنان وسبعون ! إن سيدك شاب طيب ! ثلاثة وسبعون ! شاب فاضل ! أربعة وسبعون ! هذه القطعة بها عطب صغير فى محيطها ! خمسة وسبعون ! هذه تبدو خفيفة الوزن ! ستة وسبعون ! إذا ما أحس سيدك بأنه فى حاجة إلى مال فليأت إلى اسحق أوف يورك. سبعة وسبعون ! أعنى ومعه الضمان الكافى.

وهنا توقف لحظة كان جيرث يأمل خلالها فى أن القطع الذهبية الثلاث الأخيرة تستطيع الإفلات من مصير رفيقاتها ولكن اليهودى استرسل فى عدها. ثمانية وسبعون ! إنك رجل طيب، تسعة وسبعون وتستحق لنفسك شيئاً... وهنا توقف اليهودى مرة أخرى ونظر إلى القطعة الذهبية الأخيرة وهو ينتوى بلا شك أن يغدقها على جيرث، وعمل على أن يسمع رنينها بعد أن أسقطها على المائدة، فإذا كان بها بعض الصم، أو كانت أخف من وزنها بمقدار شعرة كان النصر حليف الكرم فى ذلك اليوم، ولكن لسوء حظ جيرث أن الرنين كان مدوياً وصادقاً، والقطعة حديثة السك، وتزيد على الوزن بمقدار حبة. لم يجد اسحق فى حنايا قلبه ما يدفعه إلى أن يفترق عنها، ولذا فقد أسقطها فى كيسه، كما لو

كان ذلك عن غير عمد وهو يقول : ثمانون هى نهاية القصة، وأرجو أن تحظى بمكافأة سخية من سيدك»[١].

تصوير رائع بحق، لا للواقع المادى الملموس الذى يمكن لنا مشاهدته إذا ما جمعتنا الظروف والأقدار بيهودى ومال فحسب، ولكن أيضًا للشعور الداخلى، ولأعماق ما يدور فى النفس اليهودية تجاه المال.

إن باستطاعة القارئ للنص السابق أن يتخيل المشهد، وأن يعيشه معايشة كاملة، لتنتهى الواقعة بابتسامة لتفاصيل المشهد، وبازدراء لحقيقة ما يشير إليه من عشق ووله للمال من جانب الشخصية اليهودية.

لقد احتل المال الجزء الأكبر من عاطفة الحب فى نفس اليهودى، وتلك فطرة متأصلة فى أعماقه، عبرت عنها عبارة موجزة لسكوت وهو يصف لنا اسحق فقال :

«رأى اسحق نفسه مسوقًا إلى أن يعاود التفكير فى ممتلكاته التى كان حبها متأصلاً فى نفسه بطبيعته، وينافس حتى حنانه الأبوى، فشحب لونه، وتلعثم لسانه....» [٢]

ويقدم لنا سكوت أيضًا جانبًا آخر من جوانب العلاقة الحميمة بين اليهودى والمال حيث يوضح لنا فى أكثر من موضع أسلوب اليهود فى جمع المال.

فهم يتعاملون بالربا.

يقول الفارس لإسحق اليهودى :

---

(١) النص الانجليزى، ص ٩٦، ٩٧، الترجمة العربية ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) النص الانجليزى، ص ٣٠٥ ، الترجمة العربية، ص ٤٦٦ ، ولمزيد من مشاهد التعامل اليهودى المالى انظر النص الانجليزى، ص ٨٥، ٩٢-٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٠١، ٢١٢، ٣٠٢، الترجمة العربية ، ص ١٢٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٥٣، ٣٢٠، ٤٦٢ وغيرها.

«نعم، لكى تنهش أحشاء نبلائنا بالربا، وتحتال على النساء والصبية بالزخارف والدمى». [١]

وفى موضع آخر يبين لنا سكوت أسباب وقوع قومه فى الفخ الربوى اليهودى فيقول :

«ولكى يحتفظ النبلاء بهؤلاء الأتباع، ويسترسلوا فى مظاهر البذخ والأبهة التى كان كبرياؤهم يدفعهم إليها دفعاً، فقد كانوا يقترضون الأموال بأبهظ الفوائد من اليهود الذين كانوا ينخرون فى عظام مملكتهم كالهوام المدمرة التى يستعصى الخلاص منها إلا إذا ما اتاحت لهم الظروف فرصة للتحرر باخضاع دائنيهم لعمل من أعمال العنف المتسمة بالدناءة والضعة» [٢].

كما لم يفت سكوت أن يقدم لنا بعض أساليب اليهود فى المعاملات المادية، وهى أمور شاعت فى كل مكان حلوا به. يقول سكوت : «إن عليه (اسحق) ألا ينسى أن كل الثروة التى جمعها بامتصاص دماء فرائسه قد زادته زهواً» [٣].

وهناك مواضع عديدة من رواية ايفانهو تبين لنا هذه الأساليب، وتوضح للقارئ كيف يسرق اليهود العالم كله [٤]، وكيف يمتصون دماء الناس بالربا ويلتهمونه بالجشع والاغتصاب لثرواتهم [٥].

ومن الصور التى تثير فى النفس اشمئزازاً من أساليب اليهود فى التعامل المالى، نسوق هذه السطور القليلة المعبرة الموحية بما عانى منه الغرب المسيحى.

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٤٣ ، الترجمة العربية ، ص ٦٧ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٥٨ ، الترجمة العربية ، ص ٨٨ .

(٣) النص الانجليزى ، ص ٦٢ ، الترجمة العربية ، ص ٩٤ .

(٤) النص الانجليزى ، ص ١٦٤ ، الترجمة العربية ، ص ٢٤٧ .

(٥) النص الانجليزى ، ص ١٩١ ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٧ .

«إنه لعجيب أن ترضى كل هذه القلوب المسيحية النابضة بالحياة بأن تلعق مثل هذه الأفاعى الناهشة فى أحشاء الكنيسة المقدسة نفسها، بالربا الدنس، وابتزاز الأموال» [١].

ويتمتع اليهودى فى علاقته بالمال بما يمكن أن نسميه «بعد النظر» فهو يدرك أوضاعه وأساليبه فى البلاد التى يعيش بين ظهرانيها، ويجبى منها أموالها، ولذلك نراه يعتمد على سياسة وحصافة فى جمعه للمال باتباع أسلوب خاص يحميه، ويحمى ثرواته.

«إن اليهود كانوا يتزايدون عدداً ويتكاثرون ويجمعون أموالاً طائلة تتناقلها الأيادى بوساطة الصكوك، وهى اختراع يقال بأن التجارة مدينة لهم به، واستطاعوا عن طر يقها نقل ثرواتهم من بلد إلى آخر، حتى إذا ما حل بهم الإرهاب فى إقليم ما، بقيت أموالهم مصونة فى إقليم آخر، وكان عناد اليهود وبخلهم يلقيان مقاومة عنيفة من أولئك النبلاء الذين يعيش اليهود فى رحابهم، وكانا يتزايدان كلما اشتد الإكراه الذى يحيق بهم، أما الأموال الطائلة التى اعتادوا أن يربحوها من التجارة والتى كانت تعرضهم فى أغلب الأحايين للمخاطرة، فقد كانت فى أوقات أخرى تستخدم فى بسط نفوذهم، وضمان الحماية لهم إلى حد ما» [٢].

فهم - وفق الفقرة السابقة - «يهربون» الأموال التى يجنونها من بلد إلى آخر، وهم أيضاً يستغلون هذه الأموال الطائلة فى بسط نفوذهم وضمان الحماية لهم، وهو أسلوب مازلنا نعايشه فى عصرنا الحاضر فى كل بلد تضم على أرضها يهوداً.

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٣٠٤ ، الترجمة العربية ، ص ٤٦٤ .

(٢) النص الانجليزي ، ص ٥٣ ، الترجمة العربية ، ص ٨١ .

«سكوت» المسيحى المؤمن بالعهد القديم، كتاب اليهود المقدس، يعلم جيداً أن هذا الكتاب - والذى يمثل نصف ايمانه كمسيحى - يأمر اليهود بالتعامل بالربا مع الأغيار، بينما يحرم ذلك بين اليهودى وأخيه.

فقد جاء فى سفر التثنية :

«لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام أو ربا شئ مما يقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا ، لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل اليها لتمتلكها »[1]

فالتعامل بالربا مع غير اليهودى، فريضة دينية، من أداها بارك الله له فى كل ما تمتد إليه يده فى الأرض.

وربما عكست رواية ايفانهو هذا المفهوم فى العبارة التالية : -

«إنه مسيحى، وناموسنا يحظر علينا أن نتعامل مع الغريب والمسيحى، إلا فيما يتصل بصالح تجارتنا » [2].

والربا، من مستلزمات التعامل التجارى، ومن ثم فإن اليهودي هنا يطبق الناموس ولا تثريب عليه.

وتكفى الشواهد السابقة لبيان الدور اليهودى الربوى فى عصر سكوت ومجتمعه والرواية حافلة بالمزيد لمن أراد أن يستزيد [3].

---

(١) ٢٣ : ١٨ - ٢٠ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٢٤٣ ، الترجمة العربية ، ص ٣٧١ .

(٣) انظر النص الانجليزى، ص ١٨٨ ، ١٩٠ . ٢٩٨ ، الترجمة العربية، ص ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٤٥٥ .

البخـــل:

على الرغم من الثراء اليهودى المعهود خلال التاريخ، فإن الشخصية اليهودية قد أصيبت بداء البخل العضال حتى صارت مضرب المثل.

وقد يكون اليهودى كريماً سخياً مع أبناء قومه، إلا أنه على عكس ذلك مع الأغيار. يقول سكوت:

«... واليهود ـ كما هو معروف عنهم ـ مسرفون فى أداء واجبات الضيافة والإحسان والجود مع بنى جلدتهم قدر ما يذاع عنهم من غلظة وإحجام عن القيام بهذه الواجبات لمن يسمونهم بالكفار الذين كانوا يلقون على أيديهم معاملة لا يمكن أن تتصف بالسخاء» (١).

وقد يكون البخل قاتلاً عندما يأتى فى غير محله. فاسحق أوف يورك يمارس تلك الصفة الدنيئة ويساوم على إنقاذ ابنته، ويتباطأ فى الاستجابة لدفع فدية لابنته وحيدته، مما دفع زعيم الخارجين على القانون لأن يسدى لليهودى النصح قائلاً:

«ابسط يدك فيما تعرض يا اسحق، ولا تغللها إلى عنقك، حرصاً على سلامة ابنتك. صدقنى إن الذهب الذى تضن به على خلاصها، سيصبح فيما بعد باعثاً على المزيد من شقوتك وكأنه سيصب منصهراً فى حلقك» (٢).

بل ويظهر بخله وشحه تجاه من هو بحاجة إلى حمايتهم لنفسه:

«... وعلى نقيض موقف (شيلوك) فقد قبلوا (الحراس) العمل على أمل أن يتناولوا الطعام على حساب اليهودى الثرى، ولكنهم ضاقوا به أشد الضيق

---

(١) النص الانجليزى، ص ٩٢، الترجمة العربية، ص ١٣٨.

(٢) النص الانجليزى، ص ٣١١، الترجمة العربية، ص ٤٧٥.

عندما خاب أملهم من جراء السرعة التى أصر على المسير بها ، وثاروا عليه أيضاً بسبب تعرض خيولهم للضرر من هذا السير الإضطرارى وأخيراً قام بين اسحق وبين أتباعه شجار عنيف بشأن قدر النبيذ والجعة المقرران مع كل وجبه، وكانت النتيجة لهذا أنه عندما اقترب منهم نذير الخطر، وأصبح ما يخشاه اسحق وشيك الوقوع، انفض عنه أولئك المرتزقة الغاضبون الذين كان يعتمد على حمايتهم له، دون أن يسلك السبل التى تكفل ولاءهم له»[1].

ويبلغ البخل قمته فى الدناءة والسوء، عندما يكون فى غير المال. ويكون أشد وأنكى إذا كان فى مجال تعليم الإنسان ما يحفظ عليه حياته، يقول اليهودى اسحق أوف يورك لابنته : -

«لقد قلت صدقاً يا ربيكا. إنها مهانة للسماء أن نفشى أسرار مريام المقدسة إذ لا يجدر بنا أن نغدق على الآخرين فى إسراف ما وهبتنا السماء من خيرات، سواء أكان ذلك زنات من الذهب، أم قطعاً من الفضة، أم الأسرار الخفية لطبيب حكيم - لا مرية فى أنه ينبغى على أولئك الذين منحتهم العناية الإلهية من هبات أن يحتفظوا بها[2].

هذه الفقرة الموجزة، ترسم لنا مدى عمق وتملك رذيلة الشح والبخل من نفس اليهودى.

فالمسألة ليست قاصرة على المال، وإنما ينبغى ألا يجود المرء بأى هبة من الهبات الإلهية للآخرين، وتلك غاية سوء الخلق، ومنتهى الخسة والدناءة.

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٢٥٣ ، الترجمة العربية ، ص ٣٨٤ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٢٤٦ ، الترجمة العربية ، ص ٣٧٤ .

الخوف والجبن :

اشتهر اليهود بين سائر المجتمعات بالخوف والجبن، وقد لمس سكوت ذلك فى الشخصية اليهودية التى عرفها وعاش معها أو قرأ عنها ومن ثم عكست روايته تلك السمة، وعبر عنها فى مناظر رائعة أصدق تعبير، وجعل القارئ يتخيل تلك الحالات اليهودية وكأنه يراها على أرض الواقع.

وكان أول ظهور للشخصية اليهودية فى رواية ايفانهو مرتبطاً بالهلع والخوف، إذ يصف لنا سكوت فى العبارة التالية حال اليهودى اسحق :

« أدخل اليهودى إلى القاعة خائفاً وجلاً، ويقوم بانحناءات تفيض خضوعاً وذلة. إنه رجل طويل القامة، نحيل الجسد، قد أفقده اعتياده على الانحناء كثيراً من طوله الحقيقى». [١]

وبعد أن أسهب سكوت فى وصف اسحق وقومه، عاد ليكرر لنا مظهر الخوف والجبن الملازم لشخصية اليهودى.

« .... عندما كان يمر بالجالسين ناظراً إليهم نظرة فيها جزع وفزع، وفيها استعطاف وخضوع، ويتلكأ عند كل جالس على الجزء المنخفض من المائدة، كان الخدم الساكسونيين يرفعون اكتافهم سخرية منه » [٢].

فعندما يزيد الجبن والخوف عن المعتاد فى شخصية ما، يصبح صاحب هذه الشخصية مشاراً للتفكه والاستهزاء والسخرية، وهو بالفعل ما اتسمت به شخصية اسحق عند سكوت، وما أثر عن اليهود فى كثير من المجتمعات.

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٣٦ ، الترجمة العربية ، ص ٥٧ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٣٧ ، الترجمة العربية ، ص ٥٨ .

وفى مشهد رائع يجسد الخوف اليهودى ومظاهره التى تبعث على الاشمئزاز، يقدم لنا سكوت هذه اللوحة الناطقة :

«انه لمن العسير على المرء أن يصف الجزع الشديد الذى استولى على اليهودى عند سماعه لتلك الأنباء، والذى بدت جميع ملكاته وكأنها قد شلت لساعتها. سقط ذراعاه إلى جانبيه، وتهاوى رأسه على صدره، وانثنت ركبتاه تحت ثقل جسده، وبدا وكأن كل عصب وكل عضله فى بدنه قد تخاذلت وفقدت قدرتها على العمل فارتمى على قدمى الحاج لا على صورة رجل يجثو أو يسجد عن عمد لإثارة الشفقة، بل كرجل أثقله من جميع النواحى ضغط قوة خفية ألقت به أرضاً، وجعلته غير قادر على المقاومة»[١].

كما يقدم لنا سكوت نموذجاً آخر ليؤكد لنا تملك الخوف والجبن من الشخصية اليهودية ممثلة فى اسحق أوف يورك فيقول :

«كان اليهودى جالساً فاغراً فاه، وعيناه مثبتتان إلى المالك الفظ بنظرة تفيض رعباً وكأن هيكله يتقلص حقاً، ويتناقص حجماً تحت النظرة الثابتة المخيفة لذلك النورماندى الشرس، لم يجد اسحق المنكود فى نفسه القدرة على النهوض لأداء فروض الطاعة التى كان فزعه يسوقه إليها، ولم يقو حتى على أن يرفع قبعته أو ينبس بكلمة واحدة يستجدى بها رحمته، لقد هزه يقينه بأن العذاب والموت يحومان حول رأسه ومن ناحية أخرى كان مظهر النورماندى الضخم يبدو وقد ازداد، عن طبيعته كمظهر النسر الذى ينفش ريشه، عندما يوشك على أن ينقص على فريسته العزلاء، توقف على مبعدة خطوات ثلاث من الركن الذى كان اليهودى عاثر الحظ قد طوى نفسه فيه فوق أصغر مساحة مستطاعة...»[٢].

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٤٩ ، الترجمة العربية ، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(١) النص الانجليزى ، ص ١٨٧ ، الترجمة العربية ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

وفى تحليـل نفسى لحالة الخوف التى تنتاب اليهودى، يغوص سكوت إلى أعماق الشخصية اليهودية مقدماً لنا خلاصة هذا التحليل فى الفقرة التالية :

« .... وهكذا فقد كان من المحتمل أن اليهود بتوالى احساسهم بالخوف فى كل الصروف، قد أعدوا أذهانهم إلى حد ما لملاقاة أى عمل فيه عسف يمكن أن يحيق بهم ولذا فكل اعتداء يقع عليهم لا يكون مصحوباً بالمفاجأة، فإنه يعتبر أشد مراتب للرعب وقعاً وهولاً... »[١].

كما يدرك سكوت أن الخوف قد أصبح من السمات الوراثية الفطرية فى الشخصية اليهودية، وقد انعكس ذلك فيما قاله النورماندى لاسحق اليهودى :

«لا تظنن أنى أحدثك لأثير فيك الخوف، واستغل الجبن الوضيع الذى ورثته عن بنى جنسك... » [٢].

صفات متفرقة :

والملامح السابقة، ليست هى المكونات الوحيدة للشخصية اليهودية على نحوما قدمها ولتر سكوت، وإنما هناك صفات متفرقة وردت بصورة أقل تركيزاً مما سبق، ولكنها تساهم بدور كبير فى رسم هذه الشخصية وتقديمها على نحو متكامل.

فمن هذه الصفات مثلا النفاق. وإذا كانت هناك كتب كاملة وضعت فى نفاق اليهود[٣] فإن سكوت هنا قد أشار إلى هذه الخاصية فى مواضع قليلة نذكر فيها هذا المشهد الذى يصوره لنا على لسان اسحق اليهودى :

---

(١) النص الانجليزى ، ص ١٨٦ ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٠ .

(٢) النص الانجليزى، ص ١٨٩ ، الترجمة العربية، ص ٢٨٣ ، ولمزيد من حالات الخوف اليهودى، انظر النص الانجليزى، ص ٥٢ ، ٢٠٤ ، ٢٢٨ ، ٣٢٩، والترجمة العربية، ص ٨٠، ٣٠٧، ٥٠٢، ٥٠٣

(٣) انظر علي سبيل المثال : مارتن لوثر، نفاق اليهود، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٤ .

«نعم، ولكن ماذا نفعل لو أن الطاغية قد اغتصبها كما فعل اليوم، وأكرهني على أن ابتسم وهو يسرقني ؟ آه يا ابنتي ! إن مضار جساماً تلحق ببني قومنا ونحن محرومون مشردون في كل بقاع الأرض، وعندما نضار وتسلب أموالنا، يضحك العالم من حولنا، ونرى أنفسنا مكرهين على إخفاء مشاعرنا، ونبتسم وادعين حين كان ينبغي أن نثأر شجعاناً» [١].

واستلزمت مثل هذه الصفة خلق صفات أخرى معاونة كي تستطيع الشخصية اليهودية الحياة وسط مجتمعات تلفظها :

«على هذه المعايير كانوا يعيشون، وتبعاً لذلك تأثرت طبائعهم بالحذر والريبة والجبن العنيد وعدم التسامح، والبراعة في الإفلات من الأخطار التي تعرض لهم» [٢].

ويكرر سكوت بعض الصفات السابقة في موضع آخر مما يفهم منه ثبات الصفات في الشخصية اليهودية :

«لم يكن من العسير إقناع اسحق بالإقدام على هذه الخطوة في أية ظروف أخرى لأنه كان بطبعه رحيماً ذاكراً للجميل، ولكنه كان يتصف بالتحيز والإغراق في الريبة والجبن، وهي من خصائص بني جنسه...» [٣].

يبدو أن اليهودي في عصر سكوت قد اشتهر بفقدان الضمير، إذ يلاحظ مما ورد في ايفانهو وصم اليهود في أكثر من موضع بانعدام الضمير على نحو يشي بأن تلك سمة من سمات هذه الشخصية. يقول جيرث لاسحق :

---

(١) النص الانجليزي ، ص ٩٣ ، الترجمة العربية ، ص ١٣٩ .

(٢) النص الانجليزي ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، الترجمة العربية ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٣) النص الانجليزي ، ص ٢٤٣ ، الترجمة العربية ، ص ٣٧٠ .

«ماذا يا اسحق، يجب أن يستيقظ ضميرك حتى ولو كان ضميراً يهودياً».[١]

ويفهم مما سبق أن الضمير عند اليهودى فى ثبات دائم.

ويقول رئيس عصابة الخارجين على القانون :

«أتريد أن تكون ضمائرنا أشد سواداً من ضمير كافر عبرى يهودى؟».[٢]

واضح إذن أن ضمير اليهودى الملوث، كان أمراً شائعاً بين الناس آنذك، بل إن راعى الخنازير، ورجال العصابات يأبون أن تكون ضمائرهم كضمير اليهودى.

ولا تعرف قلوب اليهود الرحمة، وهذا أيضاً يدركه أقل الناس رحمة، وهم اللصوص والخارجون على القانون. يقول قاطع طريق :

«إن الرحمة التى تنطوى عليها قلوب اليهود أقل من تلك التى يتحلى بها ضابط شرطة غير مرتشى» [٣].

ومن الطبيعى أن يكون ضابط الشرطى غير المرتشى شديداً وقوياً وذا بأس وقسوة وفى تلك الغلظة جاء الشبه بين اليهودى وهذا النوع من الرجال.

ويبدو أن سمة الغدر قد لازمت الشخصية اليهودية على مر العصور وادركها سكوت فى عصره.

فاسحق اليهودى يدرك أنه لا ثقة فى عهده ووعده. يقول الفارس النورماندى :

«ولكن كيف لى أن اعتمد الاعتماد كله على كلمة شخص لا يثق مثقال ذرة بكلمتى».

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٩٥ ، الترجمة العربية ، ص ١٤٢ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ١٠٢ ، الترجمة العربية ، ص ١٥٥ .

(٣) النص الانجليزى ، ص ١٠١ ، الترجمة العربية ، ص ١٥٣ .

والسبب فى عدم الثقة أمر معروف. يقول الفارس :

«لأنك رجل لا عهد لك ولا ميثاق» [١].

فالخيانة والغدر والحنث بالوعد والعهد هى من سمات وملامح شخصية اسحق أوف يورك اليهودى، والتى قدمتها لنا رواية ايفانهو بإيجاز بليغ، فعبارة محدودة الكلمات كتلك التى سقناها، تكفى عن صفحات وصفحات يمكن أن تكتب كى تعبر فى النهاية عن حقيقة واحدة وهى أن اليهودى لا عهد له ولا ميثاق، وتلك سمة أخرى وليست أخيرة، نضمها إلى ما سبق ذكره، من ملامح، لتتمم لنا رسم الشخصية اليهودية كما عاصرها سكوت، وكما رغب لنا فى معرفتها، وعلى الرغم من تعاطفه التام وانحيازه البين إلى جانب هذه الشخصية.

لقد كان الواقع اليهودى فى مجتمع سكوت آنذاك، أقوى مما يمكن أن يختلج فى النفس من عواطف الشفقة والانحياز، ومن ثم غلبت تلك الخصائص السلبية مشاعر سكوت.

---

(١) النص الانجليزى ، ص ١٩١ ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٦ .

الفصل الثالث
صورة اليهودى
فى الأدب العربى المصرى

الفصل الثالث

صورة اليهودى فى الأدب العربى المصرى

على نحو ما عرضت فى الفصل السابق لصورة اليهودى فى الأدب الانجليزى بعامة، وفى رواية ايفانهو لسكوت بخاصة، نعرض هنا لليهودى فى الأدب العربى المصرى عرضاً عاماً، ثم نعرج إلى رواية أحمد وداود كى نستنبط منها بشئ من التفصيل سمات شخصية اليهودى، وموقف الكاتب فتحى غانم من هذه الشخصية.

المبحث الأول

صورة اليهودى فى الأدب العربى المصرى

وليس من المتوقع أن نجد اهتماماً واسعاً بالشخصية اليهودية فى الأدب المصرى (ونقتصر هنا على القصة والرواية) على نحو ما وجدنا فى الأدب الانجليزى وذلك لعدة أسباب :

اولاً : إن نشأة القصة والرواية بمفهومها الحديث فى مصر لا تزامن مثيلتها فى الأدب الانجليزى وإنما حسبما أتفق المؤرخون للقصة والرواية فى مصر، ترجع إلى بدايات القرن الحالى.

ثانياً : إن الوجود اليهودى فى مصر لم يكن مشكلة على مر التاريخ حيث لم يتعزل اليهود فى احياء مغلقة على نحو اخوانهم فى الجيتو الأوربى، ولا يمكن لنا أن نقارن حارة اليهود بأى جيتو لندنى على الإطلاق.

كما لم يشكل أثرياء اليهود فى مصر قوة يمكن مقارنتها بقوة اليهود فى انجلترا وبالتالى لم نجد فى التاريخ المصرى المعاصر أثراً لسيطرة اليهود على مجريات السياسة فيها على نفس النحو الذى نجده فى بريطانيا.

ثالثا : إن موقف الشعب المصرى تجاه اليهود لم يعرف التعصب الذى شهدته أوربا تجاههم.فمصربحضارتها العريقة، وإسلامها الصحيح لم تضع العراقيل أمام نمو أى طائفة فيها، ولم يكن من طبع شعبها ازدراء الآخرين لمجرد الاختلاف فى الدين أو العنصر، ومن ثم لم نجد على مر التاريخ أن الوجود اليهودى فى مصر ـ وهو وجود قديم إلى حد بعيد ـ مشكلة يهودية على الإطلاق، فقد دخل اليهود مثلاً بلاط الأمراء والحكام منذ مئات السنين دون حاجة لتقديم وثيقة أو قائمة يطلبون فيها حقوقاً مدنية أو سياسية.

فالفاطميون فى مصر فتحوا أبوابهم لمستشارين ووزراء يهود ، وفى ظل سياستهم وصل اليهود إلى أرقى المناصب الإدارية والمالية فى الدولة الفاطمية ولعل أشهرهم هو يعقوب بن كلس الذى كان الوزير والساعد الأيمن للخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله (٩٧٥ ـ ٩٩٦م)(١).

كما اورد اليهودى مارك كوهن العديد من الأسماء اليهودية ذت الشأن فى العصر الفاطمى ثم أردف ذلك بقوله :ـ

« وهذه الشخصيات التى ذكرناها تشكل فى الواقع قلة بين مشاهير اليهود الذين عملوا فى بلاط الفاطميين وقد لهجت كتب التاريخ العربية بذكر مآثرهم كما أشادت بهم الرسائل والمقطوعات الشعرية من جنيزه القاهرة(٢).

وهناك بالإضافة إلى هؤلاء كثيرون من اليهود وأكثر من النصارى، ممن شغلوا المناصب الرفيعة فى دولة الفاطميين ».(٣)

أما عن دورهم الاقتصادى فى مصر خلال العصور الوسطى فيقول مارك كوهن : «لقد اختلفت الحياة الاقتصادية ليهود مصر عنها لدى يهود شمال أوربا (الاشكناز) اختلافاً تاماً. فقد تعاطى يهود أوربا الشمالية عادة المهن الهامشية فبالغوا ، مثلاً، منذ بداية القرون الوسطى بمزاولة التجارة التى مقتها المسيحيون لما تنطوى عليه من المادية. كذلك مارس اليهود الاشكناز، بعد الحملة الصليبية

---

(١) قاسم عبده قاسم ، اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار الفكر للدراسات والتوزيع والنشر ، القاهرة ط ١ ١٩٨٧ ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٢) كلمة جنيزه كلمة عبرية تعنى الكنز ، وهى تطلق على تلك الأوراق والوثائق التى اعتاد اليهود أن يكنزوها فى غرف خاصة ملحقة بمعابدهم حتى لا تنتهك قدسية اللغة العبرية التى كتبت بها. وأما جنيزه القاهرة فهى مجموعة وثائق محفوظة بالعبرية والآرامية والعربية ، وجدت فى كنيس يهودى بالفسطاط فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى تلقى الضوء على جوانب من التاريخ والأدب العبرى .

(٣) مارك كوهن ، المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية ، والعصور الوسطى ، ترجمة نسرين مرار وسمير نقاش ، مكتبة لقاء ، تل أبيب، ١٩٨٧ ، ص ١٩.

الأولى، حرفة ممقوتة أخرى هى الإقراض بالربا. أما يهود مصر، وبلدان البحر المتوسط بعامة، فإنهم بخلاف الاشكناز، قد تمكنوا من الاندماج كلياً فى الحياة الاقتصادية للمجتمعات التى عاشوا بين ظهرانيها. وقد عمت البلاد الإسلامية، فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ثورة اقتصادية وصفها الأستاذ جويتاين، بحق، بأنها ثورة برجوازية. فقد نشأ مجتمع بارك الدين فيه جنى الأرباح الحلال، كما تم تكييف الشرع الاسلامى مع احتياجات تجارة تشعبت وتطورت بسرعة. وساهم اليهود فى كافة المجالات، وحتى إذا صح الرأى القائل بأن نسبة كبيرة من يهود مصر مارست، فى فترة الجنيزه بعض الأعمال المتصلة بالتجارة، فإن اليهود مع ذلك لم يشكلوا جماعة شاذة على غرار إخوانهم فى أوربا، وإنما كانوا مجرد طبقة مماثلة لطبقة التجار المسلمين والنصارى، والواقع أن الشراكة اليهودية الاسلامية فى الصناعة والتجارة كانت أمراً شائعاً خلال الفترة التى نحن بصددها وذلك قبل ظهور النقابات الاسلامية المغلقة.

وقد أحصى جويتاين قرابة ٤٥٠ مهنة مختلفة ورد ذكرها فى جنيزه القاهرة، ومارس اليهود معظمها، وتشمل هذه المهن على ٢٦٥ حرفة وحوالى ٩٠ عملاً تجارياً ومالياً وعلى ما يماثل هذا العدد من المهن المتصلة بالأعمال الحرة عموماً (كالطب مثلاً)، وعلى وظائف فى الطائفة وفى دوائر الدولة أيضاً».[١]

والاقتباس السابق الذى أورده كاتب يهودى بناء على وثائق الجنيزه له دلالات هامة بالنسبة لموضوعنا هنا. فاليهود لم يمارسوا الربا المقوت خلال العصور الوسطى لوجود نظام إسلامى مرن، هذا الربا الذى كان له دور بارز فى تحديد صورة اليهودى فى المجتمع الأوربى بعامة والانجليزى بخاصة والتى انعكست فى الأدب على نحو ما بينا.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤ - ٢٥ .

كما أن اليهود قد اندمجوا فى المجتمع الاسلامى آنذاك ولم يحتكروا مهنة أو وظيفة معينة لتمكنهم من السيطرة على المجتمع المصرى على غرار ما الفنا فى المجتمع البريطانى من أباطرة المال والتجارة اليهود. وهناك عبارة هامة للغاية وردت فى الفقرة التى استشهدنا بها آنفاً وهى أ ن اليهود لم يشكلوا جماعة شاذة على غرار إخوانهم فى أوربا، ومن ثم لم يرسخ فى ذهن المواطن المصرى حقائق يهودية مؤلمة كما حدث فى أوربا، فالإسلام أولاً والحضارة المصرية الاخلاقية ثانياً، قد استطاعا أن يذيبا - اليهود الى حد كبير - فى البيئة المصرية واستمر وضع اليهود فى مصر مستقراً إلى حد كبير لا تميزه قلاقل ولا اضطرابات حتى بداية هذا القرن.

ففى هذا العصر الحديث وجدنا يهوداً فى برلمانات مصر من أمثال يوسف أصلان قطاوى باشا الذى كان عضواً فى الجمعية التشريعية عام ١٩١٤، وشارك فى أول مجلس نيابى لثلاث دورات متتالية كعضو منتخب عن دوائر كوم امبو، وتم تعيينه وزيراً للمالية إبان حكم الملك أحمد فؤاد وفى حكومة أحمد زيور باشا ١٩٢٤م.

وكان هناك النائب الوفدى اليهودى يوسف تبشوتو بك الذى دخل مجلس النواب ومجلس الشيوخ بدءاً من عام ١٩٢٨ ولدورتين متتاليتين، وهو العضو اليهودى الذى استطاع أن يستجوب الحكومة فى كثير من القضايا الهامة[1].

ولسنا فى هذا المقام بصدد التأريخ للوجود اليهودى فى مصر، وإنما اكتفينا بشواهد محدودة على أن وضع اليهود فى هذا البلد لا يقارن على الإطلاق بوضعهم فى انجلترا حيث نتناول هنا ظاهرة أدبية بين أدبى البلدين.

---

(١) لمزيد حول دور اليهود فى الحياة النيابية بمصر انظر:

محمد الطويل « يهود فى برلمان مصر » دار الشعب، القاهرة، ١٩٨٨ م.

فلم تكن بمصر إذن نفس الظروف والملابسات التى تدفع لاهتمام خاص بالشخصية اليهودية ، وهذا ما أردنا هنا إقراره.

وعلى الرغم من تغير العلاقات المصرية - اليهودية فى أعقاب النشاط الصهيونى الذى توج بإقامة اسرائيل وحالة الحروب الدائمة التى ميزت هذه العلاقات، فإن كتاباً بارزين فى الأدب المصرى الحديث لم يتعرضوا على الإطلاق لهذه الشخصية فى كتاباتهم.

فليس ثمة شخصية يهودية واضحة المعالم فى كتانات محمود تيمور أو هيكل، أو الحكيم، أو طه حسين أو نجيب محفوظ أو يوسف ادريس أو يوسف السباعى وغيرهم.

ولسنا هنا أيضاً بصدد إحصاء كل الأعمال الأدبية المصرية ولكننا نشير إلى أبرزها وأكثر كتابها ذيوعاً وانتشاراً وعليه فإننا نقرر بأن الأدب النثرى المصرى لم يشهد معالجة للشخصية اليهودية حتى الثمانينيات من هذا القرن.

أما ما ورد فى "ابراهيم الكاتب" للأديب المصرى ابراهيم عبد القادر المازنى عام ١٩٣١ فهو بمثابة سيرة ذاتية قدم لنا فيها صورة لطبيب مصرى يهودى قرائى[١] يسمى افرايم يوافق على اجهاض فتاة حملت سفاحاً بينما يرفض الطبيب المسلم ذلك لتنافيه مع القيم الإسلامية.

ولعل المازنى قد أراد أن يشير بذلك إلى عدم تمسك اليهودى بالقيم والمبادئ الأخلاقية واستعداده للقيام بأى عمل يتنافى وهذه القيم.

---

(١) القرائين طائفة يهودية تؤمن بالعهد القديم فقط دون التلمود وقد نشأت فى العراق على يدى اليهودى عنان بن داود فى زمن الإمام أبى حنيفة ، وهناك تأثيرات اسلامية بارزة فى نشأة هذه الطائفة وفى فقهها ، لمزيد من المعلومات انظر كتابنا : التأثير الاسلامى فى الفكر الدينى اليهودى ، مكتبة مدبولى، القاهرة ، ١٩٩٢ .

كما قدم لنا كذلك صورة لمرضة يهودية ربانية أحبت يهودياً قرائياً لزمن طويل دون أن تتمكن من الزواج منه حيث تحرم شرائع القرائيين الزواج من الربانيين، مشيراً بذلك إلى الطائفية الكامنة فى الوجود اليهودى بمصر.

وفى النموذجين السابقين تجسيد للشخصية اليهودية كما عرفها المازنى فى المجتمع المصرى، فهما واقعيان لا دخل للخيال فيهما.

وهناك إشارات سريعة فى بعض كتابات نجيب محفوظ لبعض ملامح الشخصية اليهودية فى مصر، لاترقى للحديث عن "صورة يهوديةمحددة المعالم" على غرار النماذج التى سنذكرها هنا، وقد سئل نجيب محفوظ صاحب جائزة نوبل والعشرات من الروايات والمجموعات القصصية التى تصف الواقع المصرى عن خروج الشخصية اليهودية من إطار وصفه المسهب لهذا الواقع على الرغم من الصراع العربى الاسرائيلى الذى اكتوى الشعب المصرى بناره فقال:

"الحقيقة أن دخول الكاتب العربى على المسألة الصهيونية ممكن أن يكون من أكثر من باب. يوجد باب مباشر، والحقيقة أن هذا لايتأتى إلا لكاتب خاض التجربة أو اكتوى بنارها عن قرب مثل غسان كنفانى. لكن الصراع بيننا وبين اسرائيل ليس مسألة إحتلال أراض أو حرب أو لاجئين فحسب فهذا صراع حضارى مصيرى.وفق هذا المنطق فكل مايكتب عن ايجابيات أوسلبيات العالم العربى يدخل فى القضية من الباب الآخر.وهو الباب غير المباشر. فعندما تهاجم أى سلبية فأنت تعد العربى للحياة والصراع ضد العدو. وأنا الجأ إلى معالجة القضية على مستوى تجريدى كما فعلت فى (تحت المظلة) أما المعالجة الواقعية فهى صعبة لأننا لا نعرف الواقع معرفة تامة ".[١]

---

(١) احمد محمد عطية، مع نجيب محفوظ، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٧١، ص١٢-١٣، نقلاً عن رشاد عبد الله الشامى، الشخصية اليهودية فى أدب احسان عبدالقدوس، ص ٩٧ .

ولنا اعتراض على هذا التبرير غير المنطقى الذى قاله الأديب نجيب محفوظ، إذ أنه لا يمثل الحقيقة التى يترجمها واقع الكاتب نفسه من خلال مقابلاته مع الأدباء والصحفيين اليهود، ومراسلاته مع أساتذة الجامعات الأوربية من اليهود والذين كان لهم دور بارز فى ترشيحه لنيل جائزة نوبل"[١]، ولا ندرى كيف تحول "العدو" إلى "صديق" وتحول "الصراع" إلى "وئام ووفاق"؟.

أما أبرز الأعمال الأدبية التى عالجت الشخصية اليهودية فى الأدب المصرى فتأتى فى مقدمتها كتابات الأديب احسان عبد القدوس، وهى الوحيدة التى وجدت اهتماماً من قبل الباحثين ممثلة فى الدراسة التى قام بها الدكتور رشاد الشامى ونشرتها دار الهلال.

ويرجع الدكتور الشامى أسباب اهتمام احسان عبد القدوس بالشخصية اليهودية الى عاملين هما [٢] :

١- إقامة الكاتب فى حى العباسية الملاصق لحى الظاهر أحد مراكز إقامة اليهود فى مدينة القاهرة واحتكاكه عن قرب باليهود المصريين ومعايشتهم فى الفترة الأولى من شبابه خلال مرحلة دراسته الثانوية والجامعية، وهو ما يؤكده احسان بنفسه فى مقدمته لروايته " لا تتركونى هنا وحدى »[٣]، والتى يختمها بقوله :

" أريد أن أقول أن هذه القصة ليست من وحى المناسبة السياسية التى مررنا بها ... ولكن من وحى مجتمع عشت فيه".

---

(١) لدينا صور من وثائق دولية تثبت ترشيح اليهود للكاتب نجيب محفوظ لنيل الجائزة ، وموافقته الخطية على ذلك ، ولا مقام لنشرها هنا . أما اللقاءات الأدبية والصحفية ، فالمتتبع للصحف والمجلات العبرية يستطيع التقاطها دون عناء .

(٢) رشاد عبد الله الشامى ، المرجع السابق ، ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) احسان عبد القدوس ، لا تتركونى هنا وحدى ، مكتبة مصر ، ت ، ص ٧ - ٨ .

٢- الاهتمام المبكر لاحسان عبد القدوس بقضية فلسطين وبعد ذلك بالصراع العربى - الإسرائيلى، منذ حرب ١٩٤٨ وحتى معاهدة السلام بين مصر واسرائيل عام ١٩٧٩.

وعلى الرغم من أن احسان عبد القدوس هو الأديب المصرى الوحيد الذى تناول الشخصية اليهودية فى أعمال أدبية كاملة شملت الرواية والقصة القصيرة فإن تناوله هذا أيضا يعتبر محدوداً إذا ما قيس بانتاجه الأدبى الذى أثرى به الفن القصصى المصرى الحديث.

فمن بين مايربو على ستين رواية ومجموعة قصصية، تناول احسان عبد القدوس الشخصية اليهودية فى رواية واحدة، وخمس قصص قصيرة هى :

١ - لاتتركونى هنا وحدى (رواية) مكتبة مصر، د. ت، وقد نشرت عن دار روزاليوسف عام ١٩٧٩، بعد معاهدة السلام بين مصر واسرائيل.

٢ - بعيداً عن الأرض، نشرت ضمن مجموعة قصصية عام ١٩٥١ بعنوان: "شفتاه"، (ص ٢٥٦ - ٢٨٥).

٣ - أين صديقتى اليهودية، وهى احدى قصص مجموعة " الهزيمة كان اسمها فاطمة " (ص ٥ - ٢٥) مكتبة مصر.

٤ - أضيئوا الأنوار حتى نخدع السمك، وهى قصة قصيرة ضمن المجموعة السابقة (ص ١٧٧ - ٢٠٣).

٥ - لن أتكلم ولن أنسى، وهى ضمن المجموعة السابقة كذلك (ص ٢٠٣-٢٢٠).

٦ - كانت صعبة ومغرورة، وهى ضمن مجموعة قصصية تحمل ذات العنوان، نشرت مسلسلة فى صحيفة الأهرام عام ١٩٨٥، ثم نشرت فى كتاب عام ١٩٨٦ عن مركز الاهرام للترجمة والنشر (ص ٣٠ - ٣٥).

ويأتى فى المقام الثانى من الأدباء المصريين من حيث معالجة الشخصية اليهودية ولكن فى مجال المسرحية الأديب على أحمد باكثير الذى تستحق مسرحياته حول اليهود دراسة مستقلة، وأبرز اعماله :

١- شيلوك الجديد وتضم مسرحيتين مرتبطتين فى أحداثهما : الأولى بعنوان المشكلة وهى من أربعة فصول، والثانية بعنوان الحل وهى من ثلاثة فصول، ولم يقتصر تأثير شكسبير بمسرحيته تاجر البندقية وبطلها اليهودى شيلوك على اسم مسرحية باكثير وإنما تعداه إلى مضمون هذا العمل مع واقعية استمدها باكثير من الصراع مع اليهود فى المنطقة.

٢- التوراة الضائعة وهى مسرحية من ثلاثة فصول : وهى تعالج أيضاً قضية احتلال فلسطين وما سببته الصهيونية من كوارث عانى منها اليهود أنفسهم.

٣- إله اسرائيل، وهى كما يقدم لها كاتبها : ثلاث مسرحيات فى مسرحية واحدة، أو مسرحية من ثلاثة فصول، استقصى حقائقها من الكتب المقدسة التوراة والانجيل والقرآن ومن التلمود وغيره من كتب اليهود المقدسة وهى أيضاً ذات مغزى سياسى يستمد أبعاده من الصراع العربى - اليهودى.

٤- شعب الله المختار،وهى ملهاة فى أربعة فصول تتخذ من التراث الدينى والواقع التاريخى مادتها لمعالجة مشكلة قيام اسرائيل على أرض فلسطين. وجميع الأعمال السابقة نشرتها مكتبة مصر، فيما بين ١٩٨٥ - ١٩٨٩م.

ولدينا رواية هامة للكاتب فتحى غانم وهى بعنوان أحمد وداود، نشرتها روايات الهلال فى العدد ٤٨٦ وفى يونيو ١٩٨٩، وربما كانت الرواية الوحيدة التى تتناول شخصيات يهودية فى معظم مشاهدها وبعد رواية إحسان عبد القدوس التى أشرت إليها آنفاً.

وهذه الرواية هى بمثابة مغامرة أدبية انسانية جريئة اقتحم فيها الكاتب أسرار الصراع فى أرض فلسطين بين أحمد المسلم وداود اليهودى، ومن ثم اتخذناها نموذجاً للمقارنة برواية ايفانهو الانجليزية، لا لتقارب فى المضمون، ولا حتى الحجم وإنما لأنها تقدم لنا تجسيداً للشخصية اليهودية من خلال نماذج يهودية عديدة.

وقد صدرت مؤخراً رواية لنجيب الكيلانى تحمل عنوان " حارة اليهود" وتدور أحداثها حول الجريمة البشعة التى ذاعت فى العالم بأسره، تلك التى اتهم فيها حلاق يهودى فى دمشق، يذبح الأب توما وذلك فى الأربعينيات من القرن الماضى.

وهذه الرواية تجسد لنا الواقع اليهودى آنذاك، حيث يتغلغل كاتبها داخل حارة اليهود ليرسم لنا أروع اللوحات واصدقها تعبيراً عما كان سائداً، وليؤكد صدق روايته اعتمد على بعض الوثائق والمراجع التاريخية، ربما لينفى عن اسلوبه أى اتهام بالمبالغة.

ففى حارة اليهود عند الكيلانى نجد الثراء الفاحش والتجارات الواسعة والنساء الجميلات الفاتنات المغريات للشباب [١].

كما نجد ملامح عديدة للشخصية اليهودية، تلك الشخصية المتلونة حسب كل ظرف يحيط بها[٢] ناهيك عن عشق المال [٣]، والغدر والخيانة[٤]، الإرهاب وسفك الدماء [٥]، والأثر الميكافيلى فى السلوك اليهودى [٦]، والرشوة [٧].

---

(١) نجيب الكيلانى ، حارة اليهود ، المختار الاسلامى ، ١٩٩٢ ، ص ٨ - ٩ .

(٢) ص ٢٢ ، ١٠٣ .

(٣) ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٧٥ .

(٤) ص ٣٧ - ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٥ .

(٥) ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٨٣ - ٨٥ .

(٦) ص ٧٣ ، ١١٣ .

(٧) ص ١٢٣ ، ١٢٦ .

ولم يفت الكاتب فى هذه الرواية أن يشير إلى بعض النصوص التلمودية المقدسة لدى اليهود والتى تحثهم وتدفعهم إلى الاعتداء على الآخرين، كما تبيح لهم كل شىء مع غير اليهود ، ولعله أراد من ذلك تبرير كراهية الناس لليهود ، كرد فعل على تلك الأوامر الإرهابية المقدسة التى يسعى اليهود إلى تنفيذها طاعة لأحبارهم وكهانهم[١] .

وباستثناء ما سبق، طلع علينا الأدب المصرى النثرى الحديث، فى الثمانينيات أيضاً ، بنوع من الروايات التى تدور أحداثها بصورة رئيسية حول شخصيات يهودية لايمكن استبدالها أو تحجيم دورها ، تعتمد فى فحواها على حقائق وثائقية، وتبنى فى شكلها على ما يبنى عليه الفن الروائى من عقدة وحبكة.

هذا النوع هو قصص وروايات المخابرات المصرية، وهو نوع يستحق أيضاً أن تفرد له دراسة مستقلة، ولا يمكن لنا أن نتغاضى عن أهميته فى رسم ملامح وسمات الشخصية اليهودية. هذه الروايات، وإن كانت حقيقية فى جوهرها ، فهى ليست مجرد تقارير استخبارية جافة، بل لقد ابدع كتابها بما لهم من ملكات أدبية استطاعوا توظيفها بدقة، واضافوا إليها من رصيدهم التاريخى والنفسى، فجاءت نماذج يهودية معبرة بصدق عن "موقف" هذا الكاتب أو ذاك من الشخصية اليهودية.

وأبرز هذه الأعمال ما قدمه لنا الكاتب صالح مرسى من روايات اعتمد بناء أحداثها وتحديد أدوار شخصياتها على ملفات المخابرات المصرية مثل رأفت الهجان والحفار ودموع فى عيون وقحة وغيرها ، وقد لاقت هذه الأعمال نجاحاً كبيراً بخاصة عندما تم تحويلها إلى أعمال تليفزيونية.

---

(١) ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ .

والمتصفح لرواية رأفت الهجان[1] - أكبر الروايات حجمًا - يستطيع أن يخرج منها بسمات فارقة للشخصية اليهودية تتفق وسائر الأعمال الأدبية الأخرى للأدباء الآخرين، وتضيف لنا أبعاداً جديدة تتعلق بالمعالجة الاستخبارية للشخصية اليهودية وهو الجانب الذى يعتبر تجديداً فى التعامل مع هذه الشخصية.

وبالإضافة إلى هذه الأعمال الأساسية التى أشرنا لها، والتى تتناول الشخصية اليهودية فى أحداثها، هناك أعمال أخرى تناولت هذه الشخصية بشكل أو بآخر، ولكنها - فى رأيى - ليست بأعمال تستحق الدراسة منفردة، ولكن يمكن ضمها إلى بعضها لاستنتاج صورة عامة لهذه الشخصية.

ومن أمثال هذه الأعمال ما نعتبره قصة قصيرة حملت عنوان "عودة الأسير" واحتلت ثمانى صفحات من كتاب للأستاذ مصطفى بهجت بدوى بعنوان كلام عنا وعن اسرائيل طبع فى دار الشعب بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ بشهرين فقط.

ويوميات طبيب مصرى فى حرب ١٩٤٨، كتبها الدكتور حسان حتحوت، ولها أهمية كبرى فى نظرنا لأنها ترسم صورة واقعية لجانب هام للغاية من جوانب الشخصية اليهودية كما عايشها هذا الطبيب [2].

ولدينا كذلك رواية وثائقية لمحمد سلماوى بعنوان الخرز الملون، نشرت مسلسلة فس صحيفة الأهرام فى الفترة من ١١ يناير الى ٢٢ فبراير ١٩٩١، وتمت بعد ذلك طباعتها فى كتاب نشرته دار "الف" للنشر بالقاهرة وفيها مزج الكاتب بين رواية السيرة والرواية التسجيلية، بين مأساة بطلته نسرين حورى ومحنة الوطن، فهى تاريخ للحياة العاطفية للبطلة مثلما هى تسجيل لأهم

---

(١) صالح مرسى ، رأفت الهجان ، دار أبوللو ، القاهرة ، ١٩٩١ .

(٢) حسان حتحوت : يوميات طبيب مصرى ؛ فلسطين النكبة الاولى ١٩٤٨ ، كتاب الهلال ، العدد ٤٥٠ ، يونيه ١٩٨٨ م .

الأحداث السياسية التى شهدها الوطن العربى فى فترة نصف القرن الأخير من حرب فلسطين عام ١٩٤٨ إلى كامب ديفيد عام ١٩٧٩م.

وقد قدمت لنا هذه الرواية بعض مشاهد يمكن أن نضيفها إلى غيرها من الروايات الأخرى لتساهم فى رسم ملامح الشخصية اليهودية.

وهناك مجموعتان قصصيتان { لم اطلع عليهما بعد } لكاتب سكندرى يدعى نعيم تكلا وهما " قفزات الطائر الأسمر النحيل " و " مدينة فوق قشرة واهية " طبعتا فى اسرائيل عامى ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ولم تحظيا بالإهتمام بعد، وربما يرجع ذلك إلى عدم وصولهما لأيدى القراء بسهولة وفيهما يتناول أيضاً الشخصية اليهودية، وإن كنا لا نعلم كيفية معالجته لها[١].

وبذلك نكون قد عرضنا بإيجاز بالغ لصورة الشخصية اليهودية كما تناولها الأدب المصرى الحديث فى مجال القصة والرواية.

(١) ورد ذكر هاتين المجموعتين فى دراسة الدكتور رشاد الشامى عن الشخصية اليهودية فى أدب احسان ، ص ٩٣ ولم نعثر عليهما برغم الحرص على الإلمام بالروايات والقصص التى تتعرض للشخصية اليهودية .

المبحث الثانى

الشخصية اليهودية فى رواية أحمد وداود

لفتحى غانم(*)

على الرغم من صغر حجم رواية أحمد وداود لفتحى غانم إذا ما قورنت بايفانهو لسكوت، فإنها تضم بين سطورها ثلاث قضايا رئيسية يمكن أن تكون كل قضية منها مجالاً لدراسة مستقلة، ولكننا هنا سنسعى إلى عرض هذه القضايا بصورة كافية لبيان جوانبها بشكل واضح لا غموض فيه.

وعلى غرار ما عرضنا فى رواية سكوت، حيث فصلنا بيان محورين رئيسيين فى الرواية، فسنعرض هنا لقضايا أحمد وداود الثلاثة وهى : العلاقات بين عرب فلسطين ويهودها والفكر الصهيونى فى الرواية ثم ملامح الشخصية اليهودية.

(*) ولد فتحى غانم فى القاهرة عام ١٩٢٤ ، درس الحقوق ، وتخرج فى جامعة القاهرة عام ١٩٤٤. أصدر مجموعته القصصية « تجربة حرب » عام ١٩٥٧ ، أما روايته الأولى « الجبل » فقد صدرت عام ١٩٥٩ ثم تتابعت رواياته .

ومن ابرز كتابات فتحى غانم رباعية «الرجل الذى فقد ظله» ، «الساخن والبارد» ، «الأفيال» و «زينب والعرش» وغيرها .

وقد نشرت رواية أحمد وداود ضمن روايات الهلال ، العدد ٤٨٦ ، يونيه ١٩٨٩ .

المحور الأول : العلاقات بين عرب فلسطين ويهودها :

ترسم الرواية صورة واقعية للعلاقة العربية اليهودية فى النصف الأول من القرن الحالى، أى قبل قيام اسرائيل وانقلاب الأمور رأساً على عقب.

فأحمد - رمز الوجود العربى فى فلسطين - يستبعد أن يكون لداود - رمز الوجود اليهودى فى فلسطين قبل قيام اسرائيل - دخل فى المذابح التى تعرض لها آل أحمد، بل إن أحمد على يقين من أن وجود داود كاف لمنع مثل هذه المذابح.

" فإذا كان داود موجوداً فلا أظن أنه يسمح بذبح أبى وأمى واخوتى " [١] وحجة أحمد فى اعتقاده هذا، ذلك الماضى المشترك الذى جمع بينهما : " كانت بينى وبين داود حياة. لنا مغامرتنا، وكان يتقدم فأراه وأرى فى خيالى سارة شقيقته» [٢]

فشدة التقارب بين الشعبين جعلت خيالهما - خيال احمد وسارة -، أى انعكاس وجودهما، واحداً، وهذا أيضاً ما جعل أحمد يستبعد أن يشارك داود وقومه فى ذبح أحمد وآله.

" أتكون { سارة } بين الفتيات، أتكون تلك التى تمسك بالخنجر يقطر دماً. لا إن أمها فورتينية وابوها شالوم لن يسمحا بذلك» [٣].

وهذا التقارب الذى يراه أحمد لايعنى حقاً تاريخياً فى إلمكان.

«فالأرض أرضنا، والشجرة شجرتنا، وكلاهما يتحالفان معى ضد داود الذى يعيش فى القدس حيث دكان أبيه الساعاتى»[٤].

---

(١) أحمد وداود ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق.

فوجود داود لم يمنحه الحق فى الأرض والشجرة، وإنما هو وجود ارتبط فقط بارتزاق أبيه من "دكان"، مجرد مكان صغير بالقدس.

وسقوط أحمد بالغدر والخيانة لم ينسه حقه فى أرضه :

" كنت أسقط، أهوى نحو الأرض، أرضنا ».[١]

والشىء الذى كان يشغل بال أحمد وهو يسقط هو ذلك السؤال : " لماذا كانت حياتك على هذا النحو ولماذا كانت نهايتك على أرضك على هذا النحو» [٢] ؟.

وبعبارة أخرى كيف يقابل التسامح العربى بغدر يهودى على هذا النحو ؟.

نعم.. إن داود لم يطلق الرصاصة على أحمد، ولكنه أيضاً لم يمنعها، بل لم يحاول إنقاذ أحمد على الإطلاق :

" ونظر إلىّ فى دهشة، فى عينيه فزع، والتفت وراءه، وآخر نظراته إلىّ كانت كلها رعب، تقدم خطوة، ثم استدار كما لو كان عقرباً لدغه، إنه يبتعد وأنا أسقط على أرضى».[٣]

وعلى الرغم من هذه الخيانة، وهذا التخاذل، فمازال أحمد على أمل فى المستقبل حتى ولو لم يعش إلى أن يتحقق هذا الأمل.

" مازالت هناك فرصة للفهم أثناء السقوط، فى لحظات السقوط، وليس هناك أمل فى أن أعود إلى الحياة ولكنى لو فهمت فسوف تبقى الحياة وتستمر من خلال هذا الوعى الذى حصلت عليه».[٤]

---

(١) المصدر السابق، ص١٠.
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق ، ص ١١ .

ولقد مثلت "سارة" شقيقة "داود" رمز الانفصال اليهودى عن العرب، وذلك حين رفضت الحياة إلى جوار العرب، وذهبت إلى حيث يتمركز اليهود الذين لايحملون فى صدورهم إلا كل حقد وكراهية للعرب، لقد حصنوا أنفسهم بالحواجز بينهم وبين العرب، ولم يعد للحوار مجال فى العلاقات بين الجانبين، وكانت الكلمة للرصاص " من يذهب هناك (مستعمرة اليهود).. لايعود وإذا عاد يحمل معه السلاح ولا يتعامل معنا إلا الرصاص».[1]

لقد استطاع اليهود القادمون إلى فلسطين أن يجذبوا إليهم بنى جلدتهم وأن يغيروا ما كان منهم من مواقف وذكريات طيبة مع العرب إلى النقيض تماماً. وهذا ما حدث بالفعل مع "سارة " اليهودية الفلسطينية :

" أراها عطوفة ناعمة وهى مسلحة بالقنابل ومدججة بالسلاح، وأراها طيبة حنوناً وهى مريبة خادعة تعيش مع أوغاد يسوسونها » [2].

إن الشخصية اليهودية الفلسطينية لم تكن ايجابية تماماً ومع هذا لم يكن العرب يرفضونها على ما بها من سلبيات. كانت شخصية ضعيفة، وكان العرب يحمونها.. وهكذا كانت سارة :

" كانت تريد أن أرحمها، لأنى قوى، ولأنها ضعيفة، ولكنى بحثت عنها وحاولت أن أراها، أن أصل إليها والتقى بها، لأرحمها، ولكن الذين جاءوا أقاموا الأسوار والقلاع، وأخفوها عنى، كنت أريدها، أريد أن أعيش معها، بحقها وباطلها، بمحاسنها وعيوبها » [3].

فالعرب فى فلسطين لم يلفظوا اليهود الذين عاشوا بينهم، بل حتى بعد أن خذلوهم، وذهبوا وراء الأسوار، كانوا يتمنون عودتهم برغم ما بهم من مثالب.

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٧ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٨ .

ولعل كاتب رواية أحمد وداود أراد أن يصور بشخصية شوكت الأنصارى صاحب الضيعة " الدولة العثمانية " وقتئذ.

فهو يصور الأنصارى كخائن، يبيع الضيعة الفلسطينية لمالك يهودى، إذ يخاطبه أبو أحمد قائلاً :

" أنت لن تبيع أرض أجدادك.

فصاح الرجل مهتاجاً :

ليست هذه أرض أجدادى . . أرض أجدادى فى أورفه ولن أرتبط بكم هنا إلى الأبد ».(١)

والحقيقة أن الأتراك لم يبيعوا يوماً ما شبراً واحداً من أرض العرب، وبيع الضيعة - فلسطين - قد تم وفقا لمؤامرة شارك العرب فيها بنصيب وافر مع الإنجليز، وليس هذا مجال لاستعراض التاريخ وحقائقه، ذلك التاريخ الذى مازال يسجل رفض سلطان الأتراك بيع فلسطين مقابل الملايين فى الوقت الذى تآمر فيه أمراء العرب مع الانجليز ضد الأتراك فكانت عاقبة أمرهم خسراً.

ثم يعرض المؤلف كذلك للجو الذى ساد تسرب اليهود الغربيين إلى فلسطين واحتلالهم لأرضها بالشراء تارة ، وبالتآمر تارة أخرى .

ولاشك أن يهود فلسطين قد كان لهم دور فى "تهيئة الجو" لاستقبال هؤلاء الأغراب على أرض فلسطين.

فشالوم، والد داود ، كان يعلم جيداً من المالك الجديد للضيعة، بل وماذا يريد فى هذه الضيعة، ويحاول تضليل والد محمد :

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤.

" قال شالوم : إن رجلاً قادمًا من ألمانيا هو وزوجته وابنته وأنه عالم وقور، كان أستاذاً كبيراً فى الجامعة. وسوف يستفيد منه جميع أهل القرية ويتباهون بوجوده بينهم». [١]

كما يحاول أيضًا اعداد النفوس العربية لاستقباله وقبوله بينهم :

"روزنبرج المالك الجديد.. طبيب.. وسوف يساعدكم فى أى حالة عندكم". [٢]

إن قوة عرب فلسطين - قبل أن تستحكم الخيانة وتضرب بفروعها هنا وهناك - كانت تكمن فى تلك العلاقة التى لا تنفصم بين العربى وأرضه. كان سر تفوق العربى على اليهودى هو تمسك الأول بترابه وما عليه :

"وقبل أن أنتبه كان (داود) قد انطلق يجرى إلى الشجرة، فجريت خلفه. كان قد سبقنى بعشرات الأمتار، وكان يعدو بسرعة غير عادية، ولكنى كنت واثقا أنى سألحق به وسأصل إلى الشجرة قبله، لأن قدمىّ تعرفان الأرض، وبينها وبين كل موطىء قدم عمار وألفه، والأرض أرضى، والشجرة شجرتى،وارتطام عظام قدمىّ بالأرض يملؤنى دفئًا، وتجرى أحاديث خاصة بين قدمىّ وأرضى، لغة مشتركة بينهما من الأحاسيس والتجاوب الذى يسرى فى أوصالى وأشعر به ممتداً فى التراب والحصى والهواء، ممتداً فى أوصالى وأنفاسى، وكلنا واحد، وأنا أعدو إلى الشجرة، لأنى وهى كيان واحد، حتى وأنا بعيد عنها، وهى معى وهى هناك تنتظر مقدمى، وهذا التراب وهذا الحصى الذى يستقبلنى فى هذه اللحظة، هو نفسه الذى جعلنى أسبق داود دون أن أفكر، دون أن أدرك أنى عدوت، ولكنى سقطت تحت الزيتونة لاهثاً كما ألهث الآن وحدى بينما كان داود فى تلك الأيام يلهث بجوارى، أنفسنا تتصاعد، وهو يقول لى :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

سأسبقك المرة القادمة " [١].

فحين التقت الأقدام بالأرض، كان السبق للعربى.

وحين انفصلت الأقدام ذاتها عن نفس الأرض، تحقق حلم داود وكان له السبق.

وهى هى نفس السنن، فلمن يكون السبق الآن ؟

كما تعكس رواية أحمد وداود مواقف طبقة المنتفعين من عرب فلسطين، الذين ضحوا ببعض اخوانهم، وخنقوا الحقائق فى صدورهم، خوفاً على مصالحهم، وهذا ما جسده موقف أبى أحمد من جريمة تلويث مياه البركة التى يتوضأ منها اليهود ، والتى فعلها اليهود أنفسهم واتهموا المسلمين بارتكابها بهدف الإيقاع بين اليهود والعرب.

يقول أحمد لأبيه :

" لماذا لاتعلن ياأبى ما سمعته من شالوم أن الشبان الأغراب هم الذين دبروا الجريمة، لماذا لا تقول لهم الحقيقة ؟ ما الذى تخشاه، مصالحك مع الدكتور روزنبرج وعلاقتك بمختار العجوز حتمت عليك أن تصمت، لا تريد أن تتورط فى كلمة تضايقهم، تريد أن تستمر فى عقد الصفقات مثل تلك العملية التى ستبدأ فى المعسكر الإنجليزى ـ أنت تراهم يتكاثرون.. . يبحثون عن أرض ومساكن وصهاريج. لايهمك أن جثة الجمل مقدمة لخاتمة تنتهى بجثثنا جميعاً». [٢]

فهذه إشارة واضحة لتلك الطبقة المنتمية لعرب فلسطين وأهلها ، والذين وضعوا مصالحهم فوق الوطن، فخسروا كل شىء.

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

كما استطاع المؤلف أن يعكس بصدق طبقة "المنافقين العرب" الذين يلعبون على الطرفين لتحقيق مصالحهم الشخصية.

فعندما سأل والد أحمد المختار الذى كان ينوى مقابلة وايزمان عما سيقوله لليهود فى هذا اللقاء قال له:

"سأقول لهم نحن نريد التعاون معكم لتحسين أحوال البلاد ".

وقد رد عليه أبو أحمد قائلاً :

" تقولون لهم على الغداء نريد أن نتعاون وتقولون للناس فى المساء وقبل أن تهضموا طعام الغذاء أنكم ضحايا الغدر اليهودى الإنجليزى".

فما كانت حجة مختار إلا قوله :

"أنت تعرف السياسة يا أبا مروان "[1].

هذه الطبقة التى صورها الكاتب فى هذا الموقف الموجز هى من واقع الأحداث وهى أمر ليس بمستغرب، فهى موجودة فى كل زمان ومكان.

إن العرب يعرفون الحقيقة جيداً. فالأتراك لم يفرطوا فى الأرض، ولم يمهدوا الطريق لليهود ، ومع هذا يلتزم الجانب العربى صمته المعهود :

" كل النهايات تجمعت وفسدت. كما فسد الماء الطاهر فى تلك البركة. بجثة جمل قتلوه والصقوا التهم بالشراكسة .. وتعمدنا أن نسكت ونحن نعرف الحقيقة» [2].

ولكن يبدو أن المؤلف مقتنع تماماً بمسئولية شوكت الأنصارى – أى الأتراك

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

- عما حدث لعرب فلسطين ويهودها ، فهو يعود ويكرر ذلك حين يقول :

" وإذا كانت النهايات تحاصرنى فالسبب فى تلك البدايات التى نشطت فى ضيعة الأنصارى فأفسدت حياتنا كما أفسدت حياة عائلة شالوم».[١]

وفى الوقت الذى يرى العرب فيه أن فلسطين لأهلها المسلمين والنصارى واليهود نجد مفارقة غريبة.. فاليهود يتدربون ويستعدون لقتل المسلمين :

" فلسطين لأهلها مسلمين ونصارى ويهود ، بينما طلقات الرصاص تتدفق وتهدر خلف أسوار الكوبيتزم يتدربون على إطلاق الرصاص، يتدربون على قتلنا ».[٢]

وكانت نتيجة "الرومانسية" العربية، و"الواقعية" اليهودية، أن تحولت سارة شقيقة داود ، اليهودى العربى، وحبيبة أحمد العربى، إلى قاتل، لايتردد فى الفتك بأى عربى، حتى ولو كان أحمد.

"التفت إليها - هاهى أمامى فى يدها مدفع رشاش، ترتدى السروال والحذاء الضخم وعلى رأسها قبعة. لم تفهم نظراتى، كنت أراها شخصاً مسحوراً، هبطت به يد ساحرة، تريد أن تعبث بى، أو ربما تريد أن تساعدنى، لا أدرى.

قلت لها وكل لحظة تمر هى لحظة حياة أو موت.:

- انتظرك.

لا أدرى كيف صدقتنى. كان هذا هو التفسير الوحيد الذى قدمته،فقبلته على الفور، وأطلقت ضحكة عاليه عابثة.

- أنت مازلت كما أنت... لا تتغير بينما كل شىء فى الدنيا يتغير».[٣]

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ ـ ٧٧ ..

(٢) المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٣) المصدر السابق، ص ٨٤-٨٥.

وينتهى الحوار بين أحمد وسارة بالحقيقة التى لايريد أحمد أن يدركها. تقول له سارة :

"... ولكنى لو رأيتك فى أية مناسبة قادمة تحوم هنا، فسوف اقتلك برصاص هذا المدفع قبل أن تقترب. إن مجرد الاقتراب من هنا كفيل بأن ارديك قتيلا. أتصدقنى ؟

- نعم.
- أتفهمنى ؟
- نعم» [١].

لقد تنازعت بعض اليهود قوتان، العروبة واليهودية، وعلى الرغم من أن الخطر الذى كان يهدد اليهودية آنذاك. قبيل قيام اسرائيل لم يكن عربياً، إلا أن الجانب اليهودى تغلب على كل اعتبار لدى الشخصية اليهودية الفلسطينية، ولفظ يهود فلسطين عروبتهم، وتمسكوا بيهوديتهم حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من هذا الكيان الطفيلى الجديد.

" وكان [داود] يرى أحيانا الموت مقبلاً عليه وحشاً أسود له أنياب وعيون بارزة تائهة، أو يراه خارجاً من مياه آسنة فى بحر بلا سماء ولا شاطىء ولاشمس، ويهاجمه الوحش يريد أن يفترسه. فيصرخ مستعطفاً.. أنا عربى.. أنا فلسطينى.. لاشأن لى بهذه الحرب لا صلة لى بهذه البلاد ..وهنا يحدث أمر عجيب، إذ يبدو وكأن الوحش يتلكأ أو يتثاقل. ويخيل إليه أنه يسمع سؤالا.. هل أنت حقاً من فلسطين.فيرد مبتهلاً : نعم أنا فلسطينى أنا أتكلم العربية ولا أعرف الألمانية ويهز الوحش رأسه وكأنه استمع إلى تعويذة من السحر. ويظل داود يردد فلسطينى فلسطينى والوحش يتراجع حتى يوشك أن يختفى فى الماء الآسن

---

(١) المصدر السابق، ص٨٥.

الذى خرج منه لولا قوة قاهرة تندفع من أعماقه تصرخ.. أنا يهودى.. يهودى.. يهودى..».[١]

ولعل هذه الفقرة كافية بأن توجز لنا الكثير. فقد داس يهود فلسطين على عروبتها وعربها، داسوا على كل علاقة طيبة كانت بينهم وبين مسلميها، داسوا على تاريخ حافل بالتسامح والحماية من جانب عرب تلك البلاد، واختاروا العودة إلى أحضان يهودية عفا عليها الزمن، ثم عادت من جديد لتنصب لهم شراكها ولعلهم أخذوا من العرب سذاجتهم فسقطوا، وقطعوا كل الأسباب التى ربطتهم على مر عصور وعصور بأصحاب الأرض.. بالعرب والمسلمين فى فلسطين.

وعلى الجانب الآخر، كانت المشاعر العربية تجاه اليهود القادمين من أوربا مختلفة تماماً، فهم بالنسبة لعرب فلسطين غرباء، لايعرفون إلا لغة الخناجر وحديث البنادق.

"... ولكن هؤلاء الغرباء من اليهود منتشرون فى كل مكان. بينهم فتيات. لعل سارة بينهن ... إحداهن.. تلوح بخنجر. يا إلهى إنه ملوث بالدماء».[٢]

ويبدو أن الرومانسية العربية قد أغرقت أصحابها فلم يقدروا للأمور قدرها، فأبو مروان لم يدرك خطورة قدوم اليهود إلى بلاده، وظن أنه يملك مفاتيح القوة التى يقهر بها الضعفاء، يقول فى حديثه لشالوم:

" على أية حال ليس الذهب هو كل شىء، فالرجل لايكون فقيراً عندما يعوزه المال وإنما الفقر الذى يذل الرجال ويخضعها هو أن يعوزها الأهل والأصدقاء، الفقير هو الذى لا يجد رجالاً يعتمد عليهم، وهذا الأجنبى هو الفقير لأنه غريب» [٣].

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٢ - ٩٣.
(٢) المصدر السابق، ص٩.
(٣) المصدر السابق، ص٤٠.

لم تفلح فراسة العربى فى قراءة مستقبل الأحداث، ولعلها كانت أكبر من ادراكه، أو كانت ضرباً من اللامعقول والمستحيل،أن يتحول الأجنبى الغريب الفقير إلى أسد شرس، يفتك بأقوى المخلوقات من حوله، فى زمن ساد فيه مبدأ البقاء للأكثر إجراما وإرهابا، وهذا ما عبر عنه الكاتب فى موقع متقدم من روايته حيث قال :

" الخائفون المذعورون فى أوربا يستأسدون فى أورشليم ».[١]

وتبرز أحداث الرواية أسباب التغير الذى حل بالعلاقات العربية اليهودية داخل فلسطين، والتى شهدت عصوراً من المودة والإخاء، وأهم هذه الأسباب تسرب الفكر الصهيونى مع تسلل اليهود الغرباء إلى أرض فلسطين، حيث نجحوا فى إتلاف هذه العلاقات وتعكير صفوها بين عرب ويهود فلسطين، وأحالوا أهلها إلى فريقين متصارعين : يهود يحاولون الإبادة، وعرب يأملون فى الدفاع عن أنفسهم.

" من يذهب هناك. لايعود .. وإذا عاد - يحمل معه السلاح ولايتعامل معنا إلا بالرصاص " [٢].

فمن يذهب إلى مستعمرة اليهودى الألمانى وديعاً عطوفاً يعود إرهابياً مجرماً. حتى خال داود، يوسف رودريجز، لم يعد هو يوسف، لقد انضم إلى الإرغون يعمل تحت إمرة رجل بولندى اسمه مناحم بيجن.

لقد بدأ التغيير فى العلاقات العربية - اليهودية منذ وصول ذلك اليهودى الألمانى الغريب، وأدرك العرب ذلك حين قال أبو مروان :

"قريتنا لن تعود كما هى ... ».[٣]

(١) المصدر السابق ، ص ٨٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٥١ .

المحور الثانى : الفكر الصهيونى

عكست رواية أحمد وداود من خلال أحداثها وتفاعلاتها ومبادئ أساسية للفكر الصهيونى قامت عليها اسرائيل، وقد جاءت هذه المبادئ متسقة والسياق ولم يكن هناك ثمة تكلف فى عرضها الأمر الذى زاد من قوة النص وواقعيته.

وأول ما نلاحظه فى هذا المقام هو اهتمام يهود الغرب القادمين من أوربا بشراء ما يمكن شراؤه من أرض فلسطين، ويبدو أن هذا الأمر كان شائعاً ومعروفا لدى العرب .

فعندما تساءل الأهالى عن المالك الجديد لضيعة شوكت الأنصارى الشركسى، أدرك أبو محمد أن المالك " يهودى ليس فى هذا شك» [١].

وليس من شك فى أن الصهيونية قد اعتمدت على الانجليز فى تنفيذ سياستها إزاء فلسطين، وهكذا أدرك عرب فلسطين أن الرجل الجديد، المالك لضيعة الأنصارى سوف يعتمد على الانجليز [٢].

وقد ساهم هؤلاء اليهود المهاجرون فى تغيير معالم الأرض الفلسطينية، والعرب كانوا يدركون ذلك قبل وقوعه :

"كل شىء يتغير ويتبدل وسوف تحدث تغيرات فى الأرض لايستطيع هذا الألمانى الغريب أن يحددها من الآن، ولكنها آتية، وكل ما هو مسموح لنا عند شجرة الزيتون إلى حين» [٣].

وقد جاء المهاجرون اليهود وحملوا معهم بذور التغيير الاجتماعى ليهود

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

فلسطين. فحتى قبيل قيام اسرائيل كان يهود فلسطين يحافظون على شرقيتهم وما يتبعها من التزام أخلاقى وخلقى، خاصة فيما يتعلق بوضع المرأة، وهو الأمر الذى لم يرق للإشكناز الجدد.

فعندما رأت راشيل الروسية سارة اليهودية الفلسطينية لم تكن الأولى على عهد بالطباع الشرقية لذلك قالت عن سارة :

" انظروا كيف تقف مبتعدة .. هكذا تعودوا فى هذه البلاد الرجال منعزلون تماماً عن النساء... البنات مفروض عليهن الحبس فى حريم الشرق، وهذا ما لابد من تغييره» [١].

فـفكرة راشيل اليهودية الروسية عن بنات الشرق هى ذات الفكرة عند الغربيين جميعاً، والجديد الذى نراه هنا هو إصرار القادمين الاشكناز على ضرورة تغيير هذا الوضع، وتلك حقيقة يلمسها كل من يطلع على أحوال المرأة اليهودية فى اسرائيل فى أيامنا هذه [٢].

ويمكن القول بأن موقف هرتزل - مؤسس الصهيونية الحديثة - من المرأة ومشاركتها فى المشروع الصهيونى كان سلبياً إلى درجة كبيرة [٣] وقد اعطيت المرأة اليهودية عن طريق المنظمة الصهيونية العالمية الفرصة للمساهمة فى تحقيق الأهداف الصهيونية وإن كان من الصعب وضع معظم اليهوديات فى مجال التحدى للمساهمة فى هذه الحركة إذ يتطلب ذلك عملية تثقيف شاقة للنساء ومن

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٣ .

(٢) حول أوضاع المرأة فى إسرائيل ، انظر: Lion Tiger & Joseph Shepher , Women in the: Kibbutz .New york , 1975 .

انظر ايضاً : دفنا يزرعيلى، نساء فى الفخ (بالعبرية) تل أبيب ، ١٩٨٢ .

(٣) The Complete Dairies of Theodor Herzl, Ed. by Rapheel Patai, English traslation by Hary Zohn, The Herzl press - Thomas Yoseloff, New York, 1960, pp . 55 - 68 .

ثم أخذت الحركات المسئولة عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين مهمة تثقيف المرأة اليهودية بالفكر الصهيونى مع التركيز على التدريب المهنى لهن.

وقد شهدت موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين تطوراً ملحوظاً فى النشاط النسائى والمساهمة فى تحقيق المبادىء الصهيونية، وعقدت عدة مؤتمرات نسائية فى فلسطين من أجل تطوير الدور النسائى خاصة فى حركة الكيبوتز والاستيطان، كما وجدنا اليهوديات يتطوعن للعمل فى الجيش البريطانى بعد إعلان بلفور فى أواخر الحرب العالمية الأولى، وبعدها شاركن فى حماية المستعمرات اليهودية، وانضمن إلى المنظمات الإرهابية مثل الهاجانا، والسُتيرن، والإرجون والبالماح. وقد بلغ عدد المتطوعات فى الفيلق اليهودى بالجيش البريطانى فى الحرب العالمية الثانية أربعة آلاف امرأة يهودية[١].

ولقد عكست شخصية راشيل فى رواية أحمد وداود تلك التغيرات التى شهدتها المرأة اليهودية فى تلك الفترة والتى كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى «صهينة "المرأة، والقيام بدور فعال فى تحقيق الهدف الصهيونى المتمثل فى إقامة اسرائيل على الأرض الفلسطينية جنباً إلى جنب مع الرجل اليهودى.

والفاحص لنوعيات المهاجرين اليهود فى هذه الفترة التى تتناولها الرواية سيجد أن من بينهم من جاء مغامراً وآخرين جاءوا هرباً من الاضطهاد، وفريقًا ثالثا - وهم قلة - جاءوا إيماناً بضرورة عودة اليهود إلى فلسطين. ولعل هذا الفريق الأخير قد وجد تعبيراً عن ذاته فى مقولة راشيل لسارة:

" كفاك حظاً أنك ولدت هنا.. فغيرك يدفع حياته ثمناً للوصول لهذه الأرض"[٢]

---

(١) أديب قعواره المرأة اليهودية فى فلسطين المحتلة ببيروت، ١٩٦٨، ص ١٥٥.

(٢) أحمد وداود، المصدر السابق، ص ٦٣.

وعلى الجانب الآخر تصور لنا سارة صورة راشيل الجديدة على المجتمع العربى فتقول:

"كانت سارة تحاول أن تفهم، تريد أن تسيطر على مشاعر غامضة قد انتابتها ، لقد قابلت امرأة ليست مثل نساء بلدنا. لاتعرف الخضوع ولاتخشى الرجال، ليست كومة من اللحم والشحم فى انتظار رجل ينهشها ، أو يلفظها كما يشاء.. إمرأة تريد أن تغير ما حولها ، ليست صامتة منعزلة [١]".

فالعبارة السابقة ترسم صورتين متناقضين للمرأة اليهودية. الأولى للاشكنازية والثانية للشرقية، وقد تصارعت الصورتان، ووقفت الصهيونية بكل قواها خلف النموذج الاشكنازى، وتم لها ما أرادت، فقلما تجد فارقاً الآن بين يهوديات المشرق ويهوديات المغرب.

لقد حددت الصهيونية أدواراً جديدة للمرأة اليهودية لمعالجة النقص الكامن فى القوى البشرية،وقد مثلت راشيل هذا الفكر الصهيونى الذى عبرت أحداث الرواية عنه بعبارات وجيزة.

تقول سارة عن راشيل :

"انها جادة تريد أن تعلمنا أعمال الرجال . . تصور . حتى حراسة المزرعة [٢] " والشرقيات " سوف يخرجن من المطبخ لزراعة الخضروات التى يحتجن إليها فى المطبخ. وسوف يفلحن الأرض ليجنين الخضروات والفاكهة، وسوف يتدربن على السلاح لحراسة الأرض " [٣].

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

ومن ناحية أخرى شهد التاريخ الحديث ما فعلته الصهيونية فى كثير من البلدان التى تجمع فيها اليهود، إذ عمدت هذه الحركة إلى التضحية ببعض اليهود، أو ببعض المصالح اليهودية من أجل كسب المزيد من الدعم لها، ومن أجل تشكيل عوامل طرد قهرية ليهود الشتات، فقد عمدت الصهيونية مثلاً إلى تفجير بعض المعابد اليهودية فى العراق للإيحاء بأن العراقيين يريدون التخلص من اليهود، ومن ثم فلا مناص من الهجرة إلى اسرائيل، وقد انطلت هذه الخدعة على اليهود، وكانت نتيجتها هجرة جماعية لأكثر من مائة ألف يهودى سارعوا إلى الفرار من بغداد خشية أن تلاحقهم التفجيرات، التى لم تكن سوى حركة صهيونية مقصودة [1].

وتقص لنا رواية أحمد وداود موقفاً مشابهاً هو من خصائص الأسلوب الصهيونى. ففى قرية عربية، كانت هناك بركة من الماء الطاهر، يفد إليها اليهود للوضوء، وكان حضورهم للمكان يمثل نشاطاً سياحياً لأهل القرية. وذات يوم وجد الأهالى جثة جمل ميت فى مياه البركة الأمر الذى أزعج الجميع. وحاولت المصادر الصهيونية إلقاء تبعة هذه الجريمة على العرب للإيقاع بين اليهود والعرب من ناحية، ولتحقيق هدف صهيونى خفى من ناحية أخرى، ولم يكن للعرب مصلحة فى وقوع مثل هذه الجريمة إذ هم الخاسرون نتيجة عزوف اليهود عن الحضور إلى هذه البركة. وبالرغم من انخداع اليهود واعتقادهم بأن العرب قد فعلوا هذه الفعلة النكراء لحرمانهم من أداء شعائرهم، فقد كان هناك من يعرف الحقيقة (مثل شالوم) الذى كان على اتصال بجميع الأطراف، وكان يدرك المغزى الأساسى وراء هذه الجريمة، حيث خطط الصهاينة المهاجرون لتحويل ماء البركة

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول سياسة الصهيونية وأسلوبها فى تهجير اليهود انظر : وحيد محمد عبدالمجيد ، اليهود العرب فى إسرائيل، ص ٤٦، ٤٧ وكذلك Lilienthal , A , The other Side of the Coine , New York , 1965 .

للزراعة، ولم يكن هناك طريق آخر لمنع اليهود من استخدام هذه المياه إلا بهذه "الفبركة" الصهيونية التى تكشف الأسلوب المعهود لهذه الحركة [١].

ولم يفت رواية أحمد وداود أن تعرض للتناقض القائم بين الإشكناز بفكرهم ونهجهم وبين يهود الشرق. فهناك صنف من اليهود على حد تعبير داود الشرقى " مصنوع فى أفران المانية خاصة"ويمثله "دوف" المتغطرس الذى يقول لداود:

"إما أن تكون أخى أو اقتلك... هذا هو العلاج الوحيد لأمثالك القادمين من الشرق» [٢].

هؤلاء القادمون من العرب اتسموا بغلظة وفظاظة ودموية أملاها عليهم الفكر الصهيونى الذى دفعهم إلى فلسطين.

ولقد نجح الكاتب هنا حين استعار عبارة شهيرة لأحد فلاسفة الجريمة اليهود ألا وهى عبارة "كن أخى إلا سأقتلك. ليوحى لنا بأن هذا النهج الإجرامى هو سمة يهودية لا تتعلق بزعيم وحسب، إنما هى من خصائص اليهودى بوجه عام.

وإذا رأينا ما يقوله دوف لداود، وهو أخوه فى اليهودية، أدركنا سر بشاعة الموقف اليهودى تجاه العرب المسلمين.

يقول دوف لداود :

" أقول لك أنت أخى ولاتفرح .. إن الطريق أمامنا مفتوح ويجب أن تفرح وتستمع إلى أوامرى .. نعم أوامرى .. وضرب باصبعه فى خصرى يكاد يثقبه وقال وسخرية مريرة تنبعث من عينيه :

---

(١) انظر أحمد وداود ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) أحمد وداود ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

حتى لو اخترقنا جسدك .. وأكلنا لحمك وعظامك .. فلن يقف شيء في طريقنا.. وأنت ميت حتى تحارب معنا.. أنت تحارب فأنت موجود. وإذا لم تحارب فسوف اقتلك بيدى سوف اتدرب على القتل فى جسدك لأننا سوف نذهب ونخرب وندمر وسوف نقتل ونسرق وسوف تكون الكلمة لنا فى فلسطين. البنادق فى أيدينا تمزق أجساد العرب والإنجليز واليهود أمثالك الذين لاينضمون إلى صفوفنا ».[١]

ومن العبارة السابقة نستشف الأسلوب الصهيونى . فالصهيونية تجعل من العنف شريعة لها، وهى صاحبة الأمر والنهى بين اليهود، ولا مانع لديها من قتل اليهود ذاتهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

إن المتفحص لمواقف هؤلاء اليهود القادمين من الغرب يمكن أن يجد فى شخصيتهم ما يسمى بالتوحد فى المعتدى " بمعنى أن يتحول ضحية النازى إلى نازى له ضحايا، وأن يتحول الحمل الوديع إلى ذئب شرس. إن خوف هؤلاء اليهود من القتل جعلهم قتلة، وشعورهم الداخلى بالخوف جعلهم يبالغون فى شراستهم فى محاولة لقتل ما يقبع فى بواطنهم.

لقد كان من نتائج موقف اليهود الاستسلامى إزاء النازية أن ظهر نوع جديد من اليهود، نوع عنيد وعدوانى ومقاتل، ووجد فرصته الذهبية لتحقيق وجوده على أرض فلسطين وضد سكانها العرب [٢].

إن ما ذهب اليه : دوف " فى عبارته السابقة لا يخرج عن مقوله مناحم بيجن " نحن نحارب فنحن إذن نكون " [٣].

---

(١) أحمد وداود، المصدر السابق، ص ٩٦-٩٧.

(٢) مزيد من التفاصيل حول تأثير النازية علي الشخصية اليهودية فى : رشاد الشامى ، الشخصية اليهودية الإسرائيلية ، الروح العدوانية ، ص ١٤٦ .

(٣) مناحم بيجن، الثورة ، ص ٤٦، نقلاً عن رشاد الشامى، المرجع السابق، ص ١٤٢ ، وما بعدها

لقد أصبح العنف سمة من السمات السيكولوجية للشخصية اليهودية فهو أداة لإعادة تشكيل هذه الشخصية ومن ثم " فاليهودى يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه، ومن ذاته الطفيلية الهامشية "[١].

ويدرك الجميع أن حملة لواء الإرهاب الصهيونى هم أولئك القادمين من أوربا وبصفة خاصة من ألمانيا وبولندا. فالإرهاب الذى واجههم كيهود فى البلاد قد انعكس فى تصرفاتهم ضد العرب فى فلسطين.

" هؤلاء الخارجون من معتقلات النازى يصلحون للعمل السرى. سوف نرهب بهم الجميع. انتم مكلفون بالتخريب والتدمير، سوف تقتلون وتسرقون ٠٠ سوف تذكرون أيامكم فى المعتقل. لم نعد نرضى بضيعة أو بيارة. جابوتنسكى رفض (هايمشتات) من الآن عليكم القتال لدولة اسرائيل"[٢].

ومن ناحية أخرى :

تشكل " الأرض : حجر الزاوية فى الفكر الصهيونى بوجه خاص، واليهودى بوجه عام، فالأرض فى الفكر اليهودى التوراتى كانت ومازالت أساس الوجود اليهودى. فلا وجود بلا "أرض اسرائيل "، ولا إيمان بدونها، ولا استقرار إلا على وجهها.

إن اليهودية بوجه عام تصدر عن مفهوم وحدة الشعب بالأرض ثم تضفى على أرض فلسطين " اسرائيل" كثيراً من الصفات الدينية :

فهى " الأرض المقدسة " زكريا ٢ :١٢.

وهى " أرض الرب " هوشع ٩ :٣.

---

(١) رشاد الشامى ، المرجع السابق، ص ٨٤ .

(٢) أحمد داود ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

وهى أرض الميعاد التى وعد الله بها ابراهيم ليأخذها هو ونسله من اليهود فقط و"هى أرض الميعاد" التى يعود الشعب الصهيونى إليها تحت قيادة "الماشيح"

وهى " الأرض البهية " دانيال ١١:١٦.

وإذا كان الشعب اليهودى هو أمة الكهنة بالنسبة للجوييم، فأرض اسرائيل هى المعادل الجغرافى لهذا التصور.

ويكفى لكى ندرك قيمة الأرض " أرض اسرائيل " فى الفكر اليهودى أن نقرأ ما جاء فى اشعيا ٣٣:٢٤ وهو " ولايقول ساكن الأرض أنا مرضت، الشعب الساكن فيها مغفور له».

من هذا المنطلق اليهودى والصهيونى جاءت عبارة اسحق شيرتوك إلى الأخت مارى العاملة فى الصليب الأحمر :

".. لو قتلتنى الرصاصة التى اخترقت صدرى.. لما اهتممت.. فها أنا ذا فى ارتزازرائيل. يكفينى أن هذا الذى كنت أحلم به قد تحقق، كنت أحلم بمعجزة الوصول إلى هنا وأنا فى الخنادق أتوقع الموت فى أية لحظة.. كنت دفنت فى أرض أخرى لكان علىّ أن أزحف، احفر طريقى إلى اورشليم.. جئت إلى هنا وقد استقر يقينى أن الأرض لنا، وأن لنا جيشاً.. فماذا وجدت.. كتابا أبيض يحرم علينا أن تكون لنا دولتنا.. ارتز ازرائيل مازالت فى يد العرب مسلمين ومسيحيين.. ومطلوب من أمثالنا أن نخرج منها ولا نعود.. ولكن الرب انقذنى لأحارب.

قالت له الأخت مارى :

- الرب ينقذنا لنعيش فى سلام.

قال بعصبية :

- أنت مسيحية . . وأنا يهودى . . أنت تريدين السماء . . وأنا أريد هذه الأرض" [١].

وقد تسربت " عدوى " امتلاك الأرض إلى سارة اليهودية الفلسطينية، وانجذبت للفكر الصهيونى الذى غرسته فى نفسها " راشيل " وقد أدرك " أحمد " تلك الحقيقة وواجه " سارة " بها قائلاً :

" الآن تريدين الأرض . . ظننتك تتحولين إلى شركسية فإذا بك تريدين الأرض، أن تأخذى مكان الأنصارى [٢] "

فيهود فلسطين قد تحركت أطماعهم بفعل التاثير الصهيونى القادم مع اليهود المهاجرين وأرادوا أن يحلوا محل الأتراك فى البلاد.

والرواية حافلة كذلك بالمواقف الفلسطينية والمشاعر العربية تجاه الأرض، وربما كان تناولها فى هذا المقام يبعدنا عن الهدف الرئيسى من الدراسة والمتعلق بالشخصية اليهودية.. لا العربية [٣].

---

(١) احمد وداود ، المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٢) أحمد وداود ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٣) انظر على سبيل المثال : احمد وداود، المصدر السابق ، ص ١٠، ٤١، ٤٤، ٥٠، ١١٠، ١١٢، ١٢٤، ١٣٦، ١٣٩ .

المحور الثالث : ملامح الشخصية اليهودية :

استطاع فتحى غانم فى روايته أحمد وداود أن يرسم لنا ملامح وسمات بارزة للشخصية اليهودية كما تصورها من خلال الأحداث، وهى فى مجملها تتفق والملامح المعتادة لهذه الشخصية فى العديد من الروايات العربية، بل وفى الأدب الإنجليزى على نحو ما بيناه فى هذه الدراسة.

الخيـــانـة:

وأول ما يميز هذه الشخصية وفق أحداث الرواية هو الخيانة، ومواقفها عند فتحى غانم عديدة وذات مستويات مختلفة.

" فهؤلاء الملاعين (اليهود) لا يعرفون كتباً فى الأرض ولا كتباً فى السماء»[١]، ومن ثم فلن يحترموا مواثيق وضعتها الدول، ولا شرائع انزلت من لدن الرب فى السماء.

والعربى الفلسطينى يواجه صنفين من اليهود على أرضه. يهود فلسطين الذين بقوا منذ زمن فى البلاد، وآخرين : «غرباء" جاءوا إلى فلسطين مشبعين بروح صهيونية وأحلام استعمارية كبرى.

ولقد تحولت العلاقات الودية بين عرب فلسطين ويهودها إلى مسار جديد، هيمنت عليه وسممت اجواءه تلك الروح الاستعمارية الصهيونية وخان يهود فلسطين العرب بل اصبحوا أشد خطراً عليهم :

"الذين يعرفوننا (اليهود) أخطر علينا من الغرباء (اليهود القادمين من الخارج).[٢]

---

(١) أحمد وداود ، ص ١٠٧ .

(٢) أحمد وداود ، ص ١٠٨ .

" سيبيعوننا للغرباء ليكسبوا ثقتهم "[١].

إذن،فالخيانة هى الطابع الذى ميز الشخصية اليهودية الفلسطينية التى باعت ذلك التاريخ المشترك بينها وبين العرب، وهى طابع يهودى عام أيضا " فلو غفلت لحظة اغتالوك، واغتالوا شرفك وعرضك».[٢]

والغدر صنو للخيانة، وكانت نهاية أحمد غدرا. يقول المؤلف فى وصف دقيق يثير مكنونات النفس، ويحركها لاستنكار هذه الصفة الحيوانية البغيضة الكامنة فى كثير من نفوس البشر :

" وتقدم شاب يبدو عليه أنه هادىء، صوته خفيض، وأشار إلى الفتى العربى أن يتقدم، وتابع خطوات الفتى بعينين تلمعان بمكر وفجأة خرج بين صفوف الشبان، شاب يلوح بيده، ورأى الشاب العربى يلتفت إلى داود الذى خرج من بين الصفوف، ويتقدم نحوه، وكلاهما يسرع الخطو نحو الآخر، مشهد عجيب، لا صلة له بما يجرى، كأن شيئًا كان مختبئا تحت الأرض وانفجر فجأة، وكانت الأخت مارى تطل من فجوة فى السيارة وتصلى، وقد خيل إليها أن روحًا طيبة توشك أن تطرد أشباح الشر من فوق سطح الأرض، وكأن الغمام الذى ينتشر خارجًا من النفوس حاملاً معه التعاسة والأحزان يوشك أن ينقشع، وكأن شيئًا لم يحدث، فالقرية مازالت آمنة بأهلها، والزمان مازال طيبًا، ولكن قبل أن يصل العربى إلى الشاب اليهودى الذى خرج لملاقاته، كان الشاب اليهودى ذو العينين اللامعتين الماكرتين يومىء برأسه إلى المارد، فرفع المارد بندقيته وصوبها إلى ظهرالشاب العربى، والذى لم ير ما يحدث خلفه، وكان مشغولاً برؤيته لداود لأمر ما بينهما وخرجت الرصاصة من بندقية المارد، واخترقت الهواء، تصفر وتصطدم

---

(١) أحمد وداود ، ص ١٠٨ .

(٢) أحمد وداود ، ص ١٠٩ .

بظهر الشاب العربى وتخترقه محدثة ثقبًا حوله احتراق يتدفق منه الدم غزيراً بينما يسقط الفتى على الأرض، أما الفتى اليهودى...»[١].

هكذا الغدر والخيانة، دائما فى الظهر لا بالمواجهة، تماما كتلك الرصاصة اليهودية التى اخترقت ظهر الفتى العربى.

بيد أن الموقف هنا يشير أيضًا إلى سذاجة الفتى العربى، الذى اعتقد أن اليهود " المسلحين بالرشاشات والقنابل اليدوية، والجميع فى أيديهم سكاكين لزجة بالدم الذى لم يغسل عنها "[٢] سوف يتركونه كى يلتقى بداود.

نعم كان بين الفتى العربى وداود علاقات حميمة :«كان بينى وبين داود حياة ـ لنا مغامراتنا "[٣]، إلا أن قوم داود قد جعلوا الحياة موتًا، وكان ينبغى على الفتى العربى أن يعى حقيقة هؤلاء، ويعلم أن الخيانة لصيقة بهم. لقد سقط فى شراك الحب لداود، ودفع حياته ثمن ذلك.

ومن المنطقى أن تقود الخيانة إلى تنكر تام من الخائن تجاه ضحيته. حتى بعد الفتك بها، وهذا ما فعلته سارة شقيقة داود تجاه أحمد بعد قتله.

"ورأى داود الطبيب هانز اولافسون يقف بجوار صفوف الجثث، وفتاة تساعده فى تفتيش جيوب القتلى لعله يجد أوراقاً تدل على أصحابها، وعندما رفعت رأسها، عرف أنها شقيقته سارة.

وكانت تقول لهانز اولا فسون قبل أن تمد بيدها إلى الجثة التى جاءوا بها أخيراً والقوا بها فى نهاية الصف، حيث يقف هانز مع سارة :

---

(١) أحمد وداود، ص ١٢٧ .

(٢) أحمد وداود، ص ١٢٧ .

(٣) أحمد وداود، ص ٩ .

- أما هذا فاسمه أحمد

وسألها فى دهشة.

- اتعرفينه ؟

قالت بصوت أجش :

لا لم أعرفه أبدا »[1].

نعم. هى لم تعرفه أبداً، لقد تنكر يهود فلسطين لعربها فى حياتهم وبعد مماتهم وهذا ضرب من ضروب الخيانة، وكيف لاتفعل سارة هذا وهى ربيبة الإرهاب :

" فأنا أعرف أن سارة ذهبت وراء تلك الأسوار بعد أن رفضت الذهب والحرير، وما زالت ابتسامة عينيها الوهج الوحيد الذى بقى لى كذكرى، أراها تتهادى وهى تجرى، وأراها عطوفة ناعمة وهى مسلحة بالقنابل ومدججة بالسلاح وأراها طيبة حنونًا وهى مريبة خادعة تعيش مع أوغاد يسوسونها ... "[2].

ولا يمكن أن تبرؤ ذمة داود من نسج خيوط الخيانة، ولبس ثياب التنكر، وهذا ما رسمه الكاتب حين قال :

" كانت فتيات الإرغون قد نظمت فى الساحة فى نظام دقيق، بينما فرغ آخرون من حفر خندق كبير اشترك فى حفره داود، واشرف بتوجيهاته على الحفر معتمداً على خبراته السابقة التى اكتسبها فى حفر الخنادق فى المعسكر الألمانى. كما يرى الضابط الألمانى وهو يسأله عن اسمه وعن المكان الذى جاء منه وهو يجيبه أنه عربى من فلسطين.

وهذا هو قدره اليهودى.. أن يتنكر لربه، كما فعل أجداده مع موسى،

---

(١) أحمد وداود ، ص ١٣٣ .

(٢) أحمد وداود ، ص ١٧ .

يتنكرون للرب، ثم يبكون ويندمون ويلطمون الخدود. ولكنهم الآن تخلصوا من البكاء والندم. لم يبق إلا التنكر والنكران ...» [١]

ولقد سطر التاريخ بالفعل كيف غدر يهود الداخل والخارج بفلسطين وعرب فلسطين كيف قابلوا الإحسان بالإساءة، وهذا ما عبر عنه الكاتب بقوله : " سوف يكتبون فى المستقبل أن هذه القرية كان أهلها مسالمين، لم يتورطوا أبداً فى نزاع مع اليهود ، علاقاتهم قوية من خلال السوق عند البركة باليهود. النساء العربيات تعلمن العبرية ليخاطبن الزبائن اليهود. قدمن أفضل ما لديهن من بيض ودجاج لليهود واشتغل أبو مروان فى إقامة الصهاريج فى مستعمراتهم ورحب مختار العجوز بالدكتور روزنبرج مالكاً جديداً لضيعة الأنصارى» [٢].

حقا.. كان العرب مسالمين، وقدموا لليهود الحياة ومايعين عليها (البيض والدجاج والحليب وصهاريج المياه) وسعوا لمزيد من التقارب والتفاهم (النساء العربيات تعلمن العبرية..)، بل لقد رحب العرب باليهود القادمين من خارج فلسطين (الدكتور روزنبرج) وفوق هذا وذاك حافظوا على البركة طاهرة لتعين اليهود على آداء شعائر دينهم، ولذلك لم يصدق هؤلاء العرب أن يعلن داود فى مكبر صوت " أن القرية محاصرة من كل جانب والذى يريد أن ينجو بنفسه، يترك كل شيء ويسرع إلى التلال فى إتجاه الشمال» [٣].

" هذا مستحيل " [٤].

ولكنه الواقع.

إنها الخيانة،خيانة اليهود التى ساهمت فى مأساة العرب.

---

(١) أحمد وداود ، ص ١٣٣ .

(٢) أحمد وداود ، ص ١١٥ .

(٣) أحمد وداود ، ص ١١٥ .

(٤) أحمد وداود ، ص ١١٥ .

الإرهـــاب :

هناك بعض الدراسات التى تحاول رد الروح الارهابيـة العدوانية للشـخصيـة اليـهودية تجاه العرب إلى عوامل خارجة عن إرادة هذه الشخصية مثل وجود اسرائيل بين دول عربيـة معادية بالإضافة إلى الخطر الفلسطينى الداخلى المتمثل فى العمليات الفدائية ضد الأهداف الإسرائيلية.

وإذا كان من الممكن أن نعتمد على السلوك الفردى فى تفسير مثل الظاهرة فإننا لايمكن أن نجد تبريراً منطقياً للروح الإرهابية العدوانية الجماعية سواء فى فلسطين أم خارجها.

وأصحاب هذه الدراسات، وهم فى الغالب اسرائيليون أو امريكيون يغفلون حقيقة هامة وهى أن هذا الإرهاب ليس وليد قيام اسرائيل وإنما هو سابق لها وله جذور فى النصوص اليهودية المقدسة. فالعشق اليهودى للقتل والمذابح الجماعية والإبادة ليس له علاقة بالعرب، أو الهجمات الفدائية.

فحين أجهز أبناء يعقوب فى حضرة أبيهم - حسب رواية التكوين - على مدينة بأكملها :

"وأتيا (شمعون ولاوى ابنا يعقوب) على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف. وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة " تكوين ٣٤ : ٢٥- ٢٨.

حين فعلا ذلك لم تكن هناك دول عربية معادية تحيط بهم، ولم تكن هناك هجمات فدائية تؤرقهم.

وسفر يشوع حافل بصور الإرهاب اليهودى.

ففى مدينة عاى " دخلوا المدينة وأخذوها وأسرعوا وأحرقوا المدينة

بالنار. . . . . وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاى فى الحقل فى البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعًا بحد السيف حتى فنوا أن جميع اسرائيل رجع إلى عاى وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر الفاً جميع أهل عاى... وأحرق يشوع عاى وجعلها تلاً ابدياً خرابًا إلى هذا اليوم». ٨ :١٩-٢٩.

ونازية يشوع فى الإصحاح العاشر من سفره تفوق ما فعله هتلر، وهذه قائمة أولى بضحايا الإرهاب اليهودى منذ آلاف السنين، تشهد به كتب اليهود المقدسة :

... وضربهم (الملوك الاموراتيين الخمسة) يشوع بعد ذلك وقتلهم وعلقهم على خمس خشب وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء... وأخذ يشوع مقيدة (اسم مدينة) وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو وكل نفس بها. لم يبق شارداً.. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك اريحا. ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل اسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة. فدفعها الرب هى أيضًا بيد اسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها، لم يبق بها شارداً وفعل بملكها كما فعل بملك اريحا....» ٢٦- ٣١.

وتلك المذابح تكررت فى كل بلد يدخل إليه اليهود : لخيش وعجلان وحبرون ودبير وكل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح، وذلك كله بهدف الاستيلاء على الأرض بعون الرب.

"وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة لأن الرب إله اسرائيل حارب عن اسرائيل " يشُوع ١٠ :٣٢.

فسبب الإرهاب المقدس، فى هذا النص اليهودى المقدس، مازال قائمًا، وهو الاستيلاء على الأرض.

ومادام الرب يحارب عن اسرائيل، ويقوم بهذا الدور الدموى، فهو يجعل من هذا الإرهاب فرضا وشعيرة يتقرب بها اليهود إليه.

وإرهاب اليوم، هو ذاته إرهاب الأمس، ولاعلاقة للعرب به. وحين انتشرت تهمة الدم " [١] التى تنسب إلى اليهود ذبح بعض المسيحيين وخلط دمهم بخبز عيد الفصح،والتى سرت فى العالم شرقًا وغربًا لم تكن سوى اشارة واضحة للإرهاب اليهودى، لم يكن للعرب فيه دور على الإطلاق.

فالإرهاب إذن مستأصل فى أعماق الشخصية اليهودية منذ بداية ظهورها على مسرح التاريخ وحتى يومنا هذا.

ويمكن القول، بأن بعض الملابسات التاريخية قد أصابت الشخصية اليهودية بما يسميه علماء النفس ذهان الاضطهاد Paranoid Statc ،[٢] حيث تتصل أعراض هذا المرض بالأوهام الفكرية التى تدور حول الشعور بالاضطهاد والرغبة فى الانتقام.ومشكلة هؤلاء المرضى ليست بِيَسِيرة، إذ يفسرون أى موقف مخالف لهم بأنه اضطهاد ويروجون لذلك وهو يتمثل فى الشخصية اليهودية فيما يسمى بظاهرة اللاسامية"[٣] وقد عد علماء النفس الكثير من الزعامات الصهيونية ضمن المرضى الذين يعانون من ذهان الاضطهاد[٤].

وبالرغم من اختلاف العلماء فى تحديد أسباب هذا المرض وتناقض الآراء فى الحكم على طبيعته : أهو اضطراب فى القوى الفكرية أم اضطراب انفعالى؟ إلا

---

(١) من المؤلفات الأجنبية الخاصة بهذا الموضوع: Albert Monniot, Le Crime Ritual Chex: Les Juflis , Paris , 1914 .

(٢) عباس محمود عوض، مدخل إلى الأسس النفسية والفسيولوجية للسلوك ، المرجع السابق، ص ٣٠٠ .

(٣)حول مزيد من الإيضاح لعقدة الشعور بالاضطهاد واللاسامية عند اليهود انظر : حسن ظاظا، الشخصية الاسرائيلية ، دار القلم ، دمشق ، ط ٢ ، ١٩٩ ، ص ٦٥ وما بعدها .

(٤) عباس محمود عوض ، المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

أن كرايبلين قد حسم لنا الأمر عام ١٨٣٩ حين ميز بين الاضطهادية الفصامية وجنون الاضطهاد، الذى يعبر عن حالة من الأوهام العقلية التى تبدأ مع الفرد بالتدريج وتستمر معه دون شفاء منها، وأكد على أن أسباب هذه الحالة المرضية هى أسباب خفية تنبع من الباطن [١].

وقد حدد علماء نفس آخرون هذه الأسباب الخفية عند كرايبلين من خلال التاريخ اليهودى وارجعوها إلى انعزالية اليهود على مر التاريخ، ورأى آخرون أن الإرهاب اليهودى المتمثل فى الانتقام من الآخرين هو سلوك قومى اسرائيلى وأن اسرائيل تعتبره " صورة شرعية من صور السلوك القومى [٢] "

وتأتى الملامح الإرهابية للشخصية اليهودية فى رواية «أحمد وداود " لتؤكد لنا أن هذا الإرهاب ليس وليد ظروف راهنة، أو أحداث تاريخية، محددة، وإنما هو أقرب للطبع المتكن فى هذه الشخصية.

فالنماذج التى قدمتها لنا هذه الرواية لم يشارك فى أحداثها اليهود الهاربون من الاضطهاد النازى وحدهم، بل لقد كان ليهود فلسطين استجابة سريعة عندما اثيرت فى نفوسهم صور الإرهاب التى ربما كان لوجودهم فى مجتمع اسلامى عربى فلسطينى أثر فى خمود أوارها لبعض الزمن، ولما هبت رياح القادمين من أوربا، عادت نيران الانتقام تستعر من جديد فى هذه النفوس، بل كان ارهاب سارة اليهودية الفلسطينية التى لم تعرف هتلر ولم تره أكثر دموية من زميلاتها القادمات من المانيا.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٢ .

(٢) حفنى قدرى : الاسرائيليون من هم؟ دراسة نفسية، مكتبة مدبولى، القاهرة، د.ت، ص ٤٣٨.

وتبدأ صور الإرهاب اليهودى مبكرة فى الرواية، مع صفحاتها الأولى، وتأتى تفاصيلها تباعاً من ذبح لقرى بأكملها ، وإبادة لكل حى على الأرض، وتدمير لكل عمران، لتذكرنا بيشوع وأعماله، مع تغير فى وسائل هذا الإرهاب وفق مخترعات العصر.

وإذا كان الرب قد حارب عن اسرائيل، واعطى أوامره لشعبه بالذبح والتنكيل فى زمن يشوع، فقد انضمت قوة جديدة للإرهاب اليهودى فى هذه الرواية لتشكل ثالوثاً فظيعًا فى انتقامه من عرب فلسطين، إنه الثالوث المكون من رب اسرائيل وشعبه.. والانجليز.

يقول أحمد فى أول مشاهد الإرهاب بالرواية :

ولقد رأيت فيما يرى النائم أننى اجرى لاهثاً نحو قريتى "د" فى يوم قائظ وهلع كبير ينهش صدرى لأن أمى وأبى واخوتى وأطفالهم يذبحون بالخناجر بينما ينسف الديناميت بيوتنا...

ولكن هؤلاء الغرباء من اليهود منتشرون فى كل مكان بينهم فتيات ولعل سارة بينهن.. احداهن – تلوح بخنجر ياالهى انه ملوث بالدماء...

وهؤلاء الرجال الملتحون يقفون هناك عند الربوة فى الطريق إلى ضيعة شوكت الأنصارى بجوار سيارتين للنقل يرتفع فوق كل سيارة مدفع رشاش»[1].

واختيار الإرهاب والقتل والعنف كمبدأ قد لازم اليهودى الغربى القادم من أوربا والذى أصبح على استعداد لقتل بنى جلدته إن لم يشتركوا معه فى هذا المبدأ.

---

(١) أحمد وداود ص ٩ .

وقد انعكس هذا المفهوم فى الحوار بين داود اليهودى الشرقى وبين دوف اليهودى الألمانى حيث يقول الأخير :

« ... حتى لو اخترقنا جسدك.. وأكلنا لحمك وعظامك.. فلن يقف شئ فى طريقنا... وأنت ميت حتى تحارب معنا.. أنت تحارب. فانت موجود. وإذا لم تحارب فسوف اقتلك بيدى، سوف أتدرب على القتل فى جسدك لاننا سوف نرهب ونخرب وندمر وسوف نقتل ونسرق وسوف تكون الكلمة لنا فى فلسطين. البنادق فى أيدينا تمزق أجساد العرب والانجليز واليهود أمثالك الذين لا ينضمون الى صفوفنا » [١].

ويشير الكاتب أيضًا إلى تلك الروح اليهودية الألمانية المشبعة بالقسوة والعنف والإرهاب التى فرت من النازية فى المانيا لتمارس النازية على أرض فلسطين :

« هؤلاء الخارجون من معتقلات النازى يصلحون للعمل السرى سوف نرهب بهم الجميع انتم مكلفون بالتخريب والتدمير سوف تقتلون وتسرقون... »[٢]

حتى هذا المدرس الانجليزى الذى كان يعلم العرب اللغة الانجليزية فى مدارس القدس والذى ساهمت بلاده مساهمة كبرى فى قيام هذا الكيان الإرهابى يستنكر ذلك الإجرام اليهودى :

"إن العرب يتساقطون قتلى وجرحى بالمئات على يد عصابات إرغون وشتيرن. لم يتحمل المدرس أن تكون حصيلة عشرين عاماً من التدريس لتلاميذه من شباب العرب التنكيل بهم وذبحهم على يد اليهود تحت إشراف وتشجيع وتهليل مواطنين ينتمون إلى نفس بلده انجلترا ».[٣]

---

(١) أحمد وداود ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) أحمد وداود ، ص ٩٨ .

(٣) أحمد وداود ص ١١٨ .

والطبيب الأوربى اولافسون يستنكر مساندة الانجليز والأمريكان والروس لليهود ويهتف قائلا:

" لا أحد يقف مع وحوش تذبح الأطفال والنساء "[١]:

ولكن هيهات لندائه أن يسمع فبريطانيا تقف بكل قوتها مع هؤلاء الوحوش حتى بعد أن قتلوا لورد موين صديق تشرشل ... فالأمر أكبر من موين بل وأكبر من تشرشل وبريطانيا ذاتها ·

وجاك دى رينيه، رئيس بعثة الصليب الأحمر فى القدس يدرك ما لم تدركه بلاده، يدرك الأسلوب اليهودى الإجرامى فيقول :

«- قبل أن يسمع أحد عن هذه المذابح سوف يغرقون العالم بأخبار مذابح هتلر لليهود سوف يرتفع بكاؤهم وعويلهم ليدوى فى أرجاء العالم إنهم المعذبون على يد النازى» [٢].

إن المهمة الاولى للمارد اليهودى الإرهابى هى قتل العرب. يقول الكاتب :

«منذ ذلك الوقت والمارد يعلم أن مهمته الأولى أن يقتل أى عربى فى أى وقت وأينما شاء مادامت الفرصة أمامه متاحة» [٣].

ولم يكتف الكاتب بتلك العبارات الموجزة لإثبات الصفة الإرهابية الاجرامية للشخصية اليهودية وإنما ساق من التفاصيل ما يؤكد به هذا الوصف وليقطع الطريق على الشك فى احقية هذه الشخصية بهذا الوصف.

ومن هذه النماذج المفجعة :

---

(١) أحمد وداود ، ص ١٢٠ .
(٢) أحمد وداود ، ص ١٢١ .
(٣) أحمد وداود ، ص ١٣٠ .

«...الجثث. أشلاء الجثث، أصابع مقطوعة. بطون خرجت امعاؤها رؤس مفصولة. أجزاء من أطفال. يد طفل أو طفلة، ساق طفل أو طفلة. الموت فى كل بيت، الرجال فى المقدمة تمزقت أجسادهم، تهشمت الجماجم وتناثر ما بداخلها، كل جسم فيه مائة، ثقب والدماء تغطى الأرض عليها وقع احذيتهم. وبعد الرجال تأتى أجساد وأشلاء النساء، كان هناك وقت كاف للتمثيل بالجثث، بالأرحام والأجنة، لتقطيع الأحشاء لإخراج العيون من مآقيها»[١].

«هجم (الطبيب) مخترقاً أجسادهن (فتيات يهوديات شاهرات المدافع الرشاشة مندفعاً فى الفناء حيث قابلته أجزاء رجلين قطعوا أوصالهما. ودخل حجرة معتمة كل شئ فيها محطم، وفى الحجرة التالية وجد جثة امرأة فى العشرين مقطوعة الثديين، وبجوارها جثة امرأة لا رأس لها شقت السكين بطنها بالطول والعرض فتبدلت امعاؤها . وهو يلتف حول الجثة، اصطدمت قدمه بجسم طرى وخيل إليه أنه سمع أنينا ياالهى. كانت طفلة فى الرابعة جسدها ممزق. اقترب منها وحملها بين يديه. وفى الحال ظهر الشاب من حوله الفتيات يسدون الباب يردن منعه من الخروج، دفعهن غير عابئ بشئ. ومضى بالفتاة إلى السيارة ليضع الطفلة بين يدى الأخت مارى. وكان يسمع طلقات الرشاشات قد انطلقت محمومة. هجموا فى جنون يعيدون قتل الجثث خشية أن يظهر بينهم أحياء آخرون»[٢].

تلك نماذج سقناها - ولم نحصها - فى رواية أحمد وداود، تؤكد لنا أن الشخصية اليهودية الإرهابية قد أصبحت " نموذجاً انسانياً " [٣] من نماذج دراسات

---

(١) أحمد وداود ، ص ١٣١ .

(٢) أحمد وداود ، ص ١٣١-١٣٢ .

(٣) النموذج الانسانى فى الأدب يقصد به تقديم صورة متكاملة الأبعاد لشخصية أدبية بحيث تتمثل فيها مجموعة من الفضائل أو النقائص كانت متفرقة من قبل فى عالم التجريد أو فى مختلف الأشخاص، انظر : محمد غنيمى هلال، النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة، دار نهضة مصر، د.ت، ص٥ وما بعدها .

الأدب المقارن يمكن أن تفرد لها دراسات مستقلة وهذا ما تدعمه صورة اليهودى فى أعمال أدبية عربية وانجليزية كثيرة.

النفـاق :

النفاق هو إظهار الإنسان خلاف ما يبطن فى شتى نواحى الحياة ومن ثم يكون ضرباً من ضروب الكذب ويزيد عليه ايذاء الغير. وهو أمر لايقتصر على مجاراة الغرائز واشباع الشهوات إنما يقتضى فنوناً من الصناعة وأنواعاً من التلون والمظاهر ولا يصبح عادة إلا بعد فترة من الزمن عندما تتأصل له فى النفس عقدة يعتمد عليها ويصدر منها وإليها.[١]

وقد ينافق الإنسان لطبع فيه، فالمرء مخلوق متعدد النزعات، كما قد ينافق لأنه يؤمن بشئ يعتقد بوجوب اخفائه طمعاً فى جاه أو ملك أو خوفاً من عقاب.

وأبرز المجالات التى تسرب إليها داء النفاق هى الحروب والجاسوسية والسياسة والحكم والادارة والأفكار والعلاقات الاجتماعية والدين.

وعلى الرغم من ذم النفاق على مستوى الأديان الصحيحة والمذاهب الأخلاقية السليمة فإن هناك من أقر هذه الصفة الخبيثة كأسلوب للتعامل بين البشر على شتى المستويات على نحو ما نجده فى كتاب الأمير لماكيافيلى[٢] وقد سبقته صلاة لليهود فى يوم الغفران، تبيح للإنسان أن يستحل النفاق وأن يمارسه فى حياته شريطة أن يؤدى هذه الصلاة مرة فى العام لتسقط عنه آثام وأرجاس هذه الرذيلة.

والنفاق من سمات الشخصية اليهودية فى رواية أحمد وداود، وهو يميز زعماء اسرائيل كما يميز أفرادها.

---

(١) ابراهيم على سالم، النفاق والمنافقون ، دار الشعب ، ١٩٧٠ ، ص ٧ .

(٢) انظر كتاب الامير ، ترجمة محمد لطفى جمعه، مطبعة المعارف، ١٩١٢ م .

فعلى مستوى الزعماء نجد بن غوريون يخطب فى مؤتمر الهستدروت فى تل أبيب قائلاً :

«لابد من طرد الارهابيين من صفوفنا، سنتعاون على القضاء على الإرهاب مع الحكومة البريطانية، الإرهاب وباء لو انتشر فمعنى ذلك أننا عصابات ولسنا دولة. نحن نسعى إلى تكوين منظمة والإرهاب يسعى إلى أن نكون عصابة..

وابتسم بن غوريون وهو يتلفت حوله قبل أن يوجه نظراته وخطابه إلى المارد :

- عندما تهدأ العاصفة يمكننا أن نستأنف من جديد.. بشرط أن نبدأ بعملية واحدة ضخمة.. ليتأكدوا أننا جادون.. فإما أن ينفذوا عهودهم أو نستمر فى عملياتنا »[١].

فلهذا الزعيم اليهودى وجهان. وهو يقول مالا يفعله ويفعل مالا يقوله، وتلك صفة النفاق بعينها.

"فالمارد" اليهودى الذى أطلق النار على ظهر أحمد يرافق بن غوريون فى تحركاته :

" كان المارد مع بن غوريون يوم خطب فى مؤتمر الهستدروت فى تل أبيب يرفض الإرهاب والعنف وهو يعرف تماماً ما الذى كان يعنيه بن غوريون»[٢].

فالمارد يعلم نفاق وكذب زعيمه، فليقل هذا الزعيم ما يقول، وليرفض الإرهاب علناً فى كل مكان، وليطبقاه معاً سراً فى كل مكان أيضاً.

وداود اليهودى، مصاب أيضا بهذا الداء " الشعبى" اليهودى : يقول أحمد :

« وما كنت أدرك كيف تتغير الأشياء فى حياتنا، حتى الأشجار والدور

---

(١) أحمد وداود ، ص ١٢٩ .
(٢) أحمد وداود ، ص ١٢٨ .

والطرقات والأصوات وكأن بلادنا قد دخلها ثعبان ضخم يغير جلده. حتى داود ذهب إلى باريس ليغير جلده » [١].

فتغيير داود لجلده ليس سوى نوع من المداهنة والنفاق الذى علق بشخصية اليهودى فى هذه الرواية.

الجـــبن:

وهو من السمات الرئيسية للشخصية اليهودية فى رواية أحمد وداود والتى عرض لها الكاتب فى أكثر من موضع بدءاً بتلك العبارة الموجزة التى يصف بها اليهودى روزنبرج حيث يقول : "وسمعتهم يقولون أن القادم الجديد يهودى يخاف من ظله». [٢]

ويظهر الجبن اليهودى وقت الشدة، وهذا مابدا من سارة وداود :

«وصاحت سارة فى خوف أنها ذاهبة، ونادت داود، وتركانى اواجه الشركسى المارد وحدى... وكنت لا أدرى ماالذى دهانى، وكنت مشغولاً بسارة وكيف هربت بسرعة ناجية بنفسها ». [٣]

فعندما يتطلب الأمر مواجهة.. يهرب اليهودى.

وإذا ما احتاج المرء لعون، لايمكن أن يجده فى شخص اليهودى.

تلك سمة الجبناء، خوف وهروب، وتخلى عن الأصدقاء وقت الشدة.

ولعل أسرع الحيوانات هروباً عند توقع الخطر الأرانب وماشابهها من حيوانات أخرى كالفئران مثلاً، ومن ثم جاء تصوير الكاتب لليهود بالأرانب تصويراً موفقاً

---

(١) أحمد وداود ، ص ٨٦ .

(٢) أحمد وداود ، ص ٤٤ .

(٣) أحمد وداود ، ص ٤٨ - ٤٩ .

ومناسباً للتعبير عن حالة الرعب التى تصيب هؤلاء وتجعلهم يسارعون بالهروب تماماً كما تفعل الأرانب.

«فى دارنا كان الرجال يتندرون على اليهود الذين فروا كالأرانب مذعورين».[١] ويضيف فى موضع آخر :

"وكنا نتصايح، إنهم خائفون. يندحرون. قلة بلا حول ولا قوة، أرانب»[٢]

وهكذا، فإنه من خلال المواقف التى عرضت لنا الشخصية اليهودية،أو من خلال الصفات التى نحتها الكاتب لهذه الشخصية،نقف على معلم من معالمها، يتمثل فى الخوف والجبن، وهو ما عرف به اليهودى فى الحياة بوجه عام.

الايقاع بين الناس :

ومن الطبيعى أن يتمخض عن الخيانة والنفاق والجبن مولود يعكس صفات الآباء، إنه الإيقاع بين الناس مهما كانت الوسائل إلى ذلك.

ففى قرية أحمد بركة مياه طاهرة كان اليهود يفدون إليها للتطهر والاغتسال، أى أنها صارت "معلما سياحيا " فى القرية، أدى إلى رواج وازدهار اقتصادى كالمعتاد. وذات يوم القيت جثة جمل ميت فى البركة كى تتنجس مياهه ومن ثم لن يأتى اليهود إليها وطارت الشائعات هنا وهناك تتهم المسلمين بتدنيس المياه بهدف حرمان اليهود من الوضوء من مياهها :

«المسلمون فعلوا هذا حتى يحرموا اليهود من الوضوء بماء البركة. لن يأتى اليهود ليغتسلوا بمائها.. كذب، افتراء.. من يريد أن يمنع اليهود من القدوم إلى البركة»[٣].

(١) أحمد وداود ، ص ٨٨ .
(٢) أحمد وداد ، ص ١١١.
(٣) أحمد وداود ، ص٧٢ .

والهدف واضح وجلى من وراء الحدث. فاليهود يريدون الإيقاع بين المسلمين واليهود الزائرين لهذا المكان لضرب عصفورين بحجر واحد.

أما العصفور الأول فهو تشويه صورة المسلمين وأما الثانى فهو حرمان المسلمين من المكاسب المادية كالبيع والتعامل مع زوار المكان.

واليهود أنفسهم يدركون حقيقة الأمر فهذا شالوم، والد سارة وداود، يعرف السر ولكنه - للجبن الذى تملك من قلبه - لا يملك الجرأة حتى على رفع صوته وهو يقص على والد أحمد حقيقة الحدث :

"- نحن نعرف من الذى فعل هذا. إنهم ليسو المسلمين.

قاطعه أبى.

- الحمد لله.. أنتم تعرفون هذا..

قال شالوم :

- إنهم أولئك الأولاد الذين يتجمعون فى مزرعة روزنبرج» [١].

وإذا علمنا أن روزنبرج هذا يهودى، ونظرنا فى التاريخ اليهودى فى كثير من بلدان العالم، ادركنا أن اليهودى على استعداد للتضحية بمقدساته (البركة الطاهرة)، بل وبأرواح اخوانه (كما حدث فى تفجيرات اليهود للمعابد اليهودية فى العراق) من أجل الوصول إلى ما يصبو إليه، وهناك أمثلة عديدة فى التاريخ اليهودى تؤكد هذا المضمون الذى جاء فى رواية أحمد وداود حيث العشق اليهودى للوقيعة بين الناس من أجل أهداف بعينها.

الغرور والغطرسة :

سبق وأن أشرنا إلى أن الشخصية اليهودية مصابة - وفق علم النفس -

---

(١) أحمد وداود، ص ٧٣ .

بذهان الاضطهـاد ، ومن أعـراض هذا المرض أن يمـيل صـاحـبـه إلى المبـاهاة والمفاخرة[١] وهما ينطويان بلا شك على نوع من الغرور والغطرسة.

فالمرأة اليهودية لاتخلو من هذه الأعراض، وهذا ما عكسته شخصية "سارة" فى رواية "أحمد وداود" حيث يصفها الكاتب قائلاً :

" أخذت بعد هذا تكثر من الحديث عن نفسها ، عن جمالها ، عن أنوثتها ، أنا لست فـقط جـمـيلة، لاتوجـد من هى أجـمل منى على هذه الأرض، لم أر واحـدة أجمل منى ، لم أتمن أن أحصل على جمال رأيته فى واحدة غيرى، لا جمال الشعر، ولا جمـال العينين ولا اليدين ولا السـاقـين.. ولا النهدين. لو قلت أنى رأيت واحدة جميلة فلا يعنى هذا أنى أغير منها ، أو أنى أعترف بأنها أجمل منى[٢].

وتبدو هذه النرجسية أكثر وضوحاً عندما يكون الحديث عن اليهودية الإشكنازية ديبورا وعن جمالها ،فهى لايهمها رأى الآخرين فى هذه الفتاة تقول سارة:

" المهم هو أنا وحدى التى تقول إذا كـانت جـمـيلة أم لا.. لأنى أنا جـمـيلة وأجمل منها. الله صنع منى جمالاً كاملاً يليق به» [٣].

وتقوى هذه النزعة فى شخصيتها وينعكس ذلك فى عبارتها :

" لا يهم سوى احـسـاسى أنا .. أهم شئ أن أحس بأنى جـمـيلة، أن أهتم بنفـسى وأعـرف أنى جـمـيلة. هذا الاحـسـاس هو الذى يجـعل كل من ينظر إلى يعرف أنى جميلة» [٤].

وتظهر أعراض المرض فى موضع آخر حيث تقول سارة :

---

(١) عباس محمود عوض ، المرجع السابق ، ص ٣٠٠ .
(٢) أحمد وداود ، ص ٥٦ .
(٣) أحمد وداود ، ص ٥٧ .
(٤) أحمد وداود ، ص ٥٧ .

" كانت العيون تنظر إليّ، وكنت أشعر بالنظرات مبهورة على فكرة النساء ينتبهن الى الجمال ويتأثرون (ويتأثرن) به قبل الرجال. نعم هناك بينهن من يتغزلن في جمالي. شعرت بنشوة...».[1]

وإذا كانت هذه الصورة التى عرضناها على المستوى الفردى، فإن العَرَض يطغى على هؤلاء اليهود جميعاً.

نعم. "انهم يسخرون من العالم.. لا يهمهم أى شئ» [2]. وبالتالى، فلا وزن لهيئة دولية أو شرعية عالمية لدى اليهودى، وهذا هو رد فعل المارد الإرهابى اليهودى حين علم أن تقريراً عن مذابح اليهود قد أرسل إلى جنيف، فقال وهو يطلق قهقهة عالية :

- جنيف. جنيف .. أى نيف .. أى بلد فى العالم .. لايهم ..»[3].
هذا العرض المرضى، الذى تترجمه تصرفات الشخصيات اليهودية التى طرحتها الرواية، هو ما نلمسه ونعيشه على أرض الواقع، وما يدركه كل إنسان على هذا الكوكب المبتلى.

فجيشهم، جيش لايقهر.

وذراع اسرائيل طويلة وممدودة.

وانتهاكهم لكل قانون أو شريعة معروف لايحتاج منا إلى برهان.

ويبقى أن نقول، أنه على الرغم من قلة النماذج التى يمكن أن نستشهد بها على هذه السمة، إلا أن الكاتب قد نجح بحق فى الوصول إلى لبنة أساسية من لبنات الشخصية اليهودية.

---

(١) أحمد وداود ، ص ٥٩.
(٢) أحمد وداود ، ص ١٢٠ .
(٣) أحمد وداود ، ص ١٣٤ .

أخلاقيات اليهود :

ولانعدم فى رواية " أحمد وداود" وجود إشارات هنا وهناك، يمكن أن ترسم لنا مع بعضها صورة عامة لأخلاقيات الشخصية اليهودية وأسلوب تعاملها مع الآخرين.

فمن هذه الأخلاقيات التى عرفت عن اليهود، استخدام " الاغراء النسائى" لاصطياد الفريسة، وتحقيق الهدف المنشود.

يقول أحمد :

" البنات فى المعسكر يبتسمن لى. عينى عينك، إذا التقت عيناى بواحدة غمزت بعينها وإذا اقتربت منها خطوة اقتربت منك خطوتين وإذا أردت منها قبلة أعطتك جسدها . وفى أى مكان. خلف السيارة لايهم، وراء باب لايهم، حجرة مكتب لايهم. أينما تريد».[١]

ويضيف قائلاً :

«لو أنك رأيتها وهى تخلع ملابسها فى القيظ، وتسكب الماء على ظهرها ورأسها فينساب بين ثنايا جسدها العارى، ثم تكتشف أنك واقف مسمر تحدق فيها، فسوف تضحك مسرورة لأنها فتنتك وتغمز لك بعينيها. لابد أن تكون قديسا.. ها. ها. المليحة وقفت للعابد بباب المسجد.. ولكن هذه ليست فى خمار أسود. انها فى عرى ناصع البياض.. ها.. ها.. هذه الحرب فيها العجب.. عليك أن تحارب أجساد نساء. ليس فقط سلاح رجالى.. لديهم أسلحة أخرى كثيرة[٢].

ومادامت النساء اليهوديات لا يمانعن استغلال أجسادهن على هذا النحو، فإنهن لا يتورعن عن تشجيع رجالهن على الإعتداء على الأخريات، ومن ثم

(١) أحمد وداود ، ص ١٠٤ .
(٢) أحمد وداود ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

كان "أحمد" يتوقع من "سارة " أن تعلن فى مكبر الصوت لأهالى قريته بصوتها الرفيع الحاد :«إن أى امرأة سوف يجدونها أمامهم سوف يتركونها للرجال يهتكون عرضها.

صوت سارة يرتفع ساخرة. التى تنتظر سوف تجد رجالنا مستعدين. اخلعى ملابسك وتجردى من كل ثيابك واستلقى على ظهرك فى انتظار الرجل القادم إليك. ويرتفع صوتها متشنجاً، لدينا من الرجال ما يكفى الجميع» [١].

إنها صورة مثلى لانعدام الأخلاق، وتفسخ القيم، لا يمكن أن نتوقعها من بشر يزعمون أنهم مختارون من قبل الرب لهداية الإنسانية واسعادها.

وقد ادرك هانز اولافسون عضو بعثة الصليب الأحمر أنه يواجه نوعية من البشر تختلف تماماً عمن عرفهم من المخلوقات الآدامية، لكثرة ما تتصف به من شراسة وإجرام :

" كل هذا وهانز اولافسون واقف بالباب. ينتظر، ويستمع مذهولاً.. إلى هذا الكابوس الذى يخيم على الحجرة، إن الضباب عندما يجتاح الأرض فى بلاده وتنعدم الرؤية تصفو النفوس لتعوض عتمة الخارج باشراقة فى أعماق النفس. لا أحد من البشر يتحمل العتمة فى الخارج وفى أعماق نفسه ولكنه يشعر الآن أن الغمام يجتاحه أيضاً، يخرج فى دوامات فواره من كوامن أجساد بشرية لايكاد يصدق أنها أجساد بشرية حقيقية لابد أنها مجرد أشكال على هيئة بشر، اتخذت لنفسها اسماء هاغناه وارغون وشتيرن وتقف عقبة دون إتصال البشر بعضهم ببعض وتقيم حدوداً وحواجز بين بشر يريدون أن يساعدوا بشراً.

صاح هانز اولافسون : هذا جنون» [٢].

---

(١) أحمد وداود ، ص ١١٥ .
(٢) أحمد وداود ، ص ١٢٠ .

إن ما رآه الأوربى - الذى لايزعم اختياراً إلهيًا لجنسه وقومه - من أخلاقيات العصابات اليهودية الصهيونية جعله ينزع عن هؤلاء ثياب الإنسانية ليكشف سوءاتهم اليهودية القذرة.

فهم ليسوا ببشر وإنما أشكال على هيئة بشر.

وأفعالهم النكراء لايمكن أن تنتمى إلى عالم المعقول، وانما هى الجنون بعينه.

هذه الأخلاقيات التى أشرت إلى نموذج منها والمتمثلة فى انخفاض الانفعالية وغلبة الفكر المجرد على العاطفة، إنما هى من سمات الشخصية الدموية التى حددها علماء النفس[1] تلك الشخصية التى تبرأ من عدوى العاطفة وتبعد عن الوساوس الأخلاقية التى قد تمنعها من ارتكاب أبشع الأفعال.

والشك أيضًا معلم من معالم هذه الشخصية اليهودية. فاليهودى يشك فى نوايا الآخرين، بل ويشك كذلك فى مظهرهم، ولايعترف إلا بذاته وعالمه وماعداها سراب خادع.

ويرسم لنا الحوار بين الأخت مارى العاملة فى الصليب الأحمر وبين اليهودى اسحق شرتوك الذى استطاع أن يجتاز بحور الموت ويصل إلى شواطئ الحياة بفضل مساعدة الأخت مارى له، صورة واضحة لنظرة اليهودى إلى نفسه وإلى الآخرين :

" قالت له الأخت مارى :

- الرب ينقذنا لنعيش فى سلام.

قال بعصبية :

- أنت مسيحية.. وأنا يهودى.. أنت تريدين السماء.. وأنا أريد هذه الأرض.

---

(١) انظر : سامى الدروبى ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

قالت الأخت مارى :

- أنا أصلى لك.

- فنظر اليها متحديًا وقال :

- حتى لو قلت إن اورشاليم لنا ·

قالت :

ماذا يفيد الإنسان أن يكسب أى أرض ويخسر نفسه ؟

قال ضاحكًا يتحداها :

- أيتها الأخت .. أنا لا أعرف غير هذا العالم.. ولا أصدق هذه التمثيليات التى تقومون بها ·

واستولى عليه هياج مفاجئ فصرخ فيها وقد استرد عافيته :

- ملابسك هذه تقول أنك ممثلة · · تخدعين الناس.. ».[١]

ولانبالغ إذا اعتبرنا الشك سمة من سمات الشخصية اليهودية على نحو ما وردت فى رواية "أحمد وداود" فقد توصل الدكتور قدرى حفنى [٢] فى دراسته عن جيل السابرا من اليهود وتكوينهم النفسى معتمداً على دراسة العالم الانثروبولجى الامريكى "ملفورد سبيرو" إلى سمات أساسية فى هذه الشخصية منها الشك.

وما أسهل على اليهودى من أن يتنكر. يتنكر لبلده.. لقومه.. لربه ودينه وإذا ما أدركنا هذا الاستعداد الفطرى للتنكر امكننا أن نفهم جيداً

موقف يهود فلسطين من أهلها ولأمكننا أن نتوقع ما يمكن أن يحدث فيما يستجد من أحداث.

---

(١) أحمد وداود ، ١٢١ ـ ١٢٢ .

(٢) قدري حفنى ، المرجع السابق ، ص ٤٢١ .

فالدهر دول والتاريخ عبر، ولليهودى فى مجال التنكر قدم السبق، بل لقد أصبح محترفاً لهذا الخلق الذميم.

وتقدم لنا الرواية نموذجاً لهذا التنكر حين سئل داود فى المعسكر الألمانى عن اسمه والمكان الذى جاء منه فلم يجرؤ على القول بأنه يهودى من أرض اسرائيل، وإنما القى بهذا الترهات فى مهملات التاريخ وتذكر الحقيقة وحدها قائلا أنه عربى من فلسطين.

ولم يفت الكاتب الواعى للتاريخ اليهودى أن يعلق على هذا الموقف فأردف قائلاً :

«وهذا هو قدره اليهودى.. أن يتنكر لربه. كما فعل أجداده مع موسى يتنكرون للرب، ثم يبكون ويندمون ويلطمون الخدود. ولكنهم الآن تخلصوا من البكاء والندم. لم يبق الا التنكر والنكران».[١]

---

(١) أحمد وداود، ص ١٣٣.

الخـــاتمــــة

ذكرت فى مقدمة هذه الدراسة، أن الصورة التى يقدمها الأدب لشخصية من الشخصيات، يعول عليها كثيراً فى معرفة خصائص سلوك تلك الشخصية فى واقع الحياة وهذا بدوره يساعدنا فى التعامل مع هذه الشخصية، ومعرفة مدى استجابتها وردود أفعالها تجاه قضايا العصر الشائكة .

وخصائص الشخصية اليهودية التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة يمكن أن نرى فيها مجموعتين بارزتين- الأولى هى سمات وخصائص فارقة، ثابتة فى الشخصية اليهودية، سواء كانت فى أوربا ، أم على أرض العرب، وسواء كانت فى العصور الوسطى أم فى العصر الحديث. فهذه الثوابت راسخة، لا يغيرها زمان أومكان.

والثانية متغيرة تتعلق بالظروف والأحوال والملابسات التى تجد الشخصية اليهودية فيها نفسها .

أما الثوابت فى الشخصية اليهودية فيمكن الوقوف على أبرزها فيما يلى :

١ - الحب الغريزى للمال :

هذه الصفة لازمت اليهودى على مر العصور، وأهميتها ترجع إلى ارتباطها بصفات حتمية تنعكس آثارها على المجتمعات التى يعيش فيها اليهود. فحب المال فى حد ذاته ليس معيبا ، وإنما أن يسيطر هذا الحب على سائر مكونات الشخصية ويصبح المحرك الأول للسلوك فهذا ما يخرج عن المألوف.

والحب الغريزى للمال فى شخصية اليهودى عكسته لنا بوضوح رواية

ايفانهو، وعبر عنه بصدق تعبير وجيز، فهو حب بالسليقة [١].

وقد تملك هذا الحب من مشاعر وأحاسيس اليهودى إلى درجة زاحم فيها أرقى مشاعر الإنسانية، ممثلة فى عاطفة الأبوة الجياشة بل تفوق حب المال على هذه العاطفة السامية [٢].

ونتيجة لهذه السيطرة المادية، لم يبال اليهودى بوسائل إشباع هذه العاطفة، فراح يسعى لجمع الأموال، متسلحاً بشتى الوسائل والطرق فالغاية تبرر الوسيلة، وحب المال لا يقف فى وجهه شرعية الوسائل المؤدية له أوأخلاقياتها. فكان الربا، وكان الاحتيال، وكان امتصاص دماء الأفراد والأمم والشعوب، على نحو ما صورت لنا رواية ايفانهو بعض هذه الجوانب، كما كان استغلال هذا المال- فى عصور لاحقة- من أجل تحقيق أهداف سياسية توسعية، على نحو ما قدمت لنا رواية أحمد وداود حين استغل الألمانى اليهودى روزنبرج ظروف شوكت الأنصارى، واشترى ضيعته، لتكون نواه لتحقيق الحلم الصهيونى فى السيطرة على الأرض العربية عن طريق المال فى وقت لم يكن من الممكن لليهودى فيه أن يستخدم السلاح[٣].

ومن الطبيعى أن يتمخض هذا الموقف اليهودى تجاه المال عن وليد مشابه فى صفاته المنفرة كما سبق وأن أشرنا له، فكان البخل والشح،،وهما وجهان لرزيلة واحدة، قد تؤدى بصاحبها إلى الهلكة فى كثير من الأحيان،

فإذا شاءت الأقدار أن يقف المال فى مواجهة مع التضحية بالنفس وبفلذات الأكباد، فتباً لهؤلاء جميعاً وليحيا المال شامخاً.

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٩٥ ، الترجمة العربية ، ص ١٤٣ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٣٥ ، الترجمة العربية ، ص ٤٦٦ .

(٣) أحمد وداود ، ص ٢٦ .

فاسحق اوف يورك لايضحى بماله، ويتراخى فى فدية ابنته [١].

وهو كذلك لايضحى بماله، ويرفض الانفاق على أمنه وحياته [٢].

٢ - الغدر والخيانة :

اتسمت شخصية اليهودى بالغدر والخيانة. وقد عرضت لنا نماذج فى هذه الدراسة درجات مختلفة من هذه الصفة الدميمة فى المجتمعات التى ابتليت بالوجود اليهودى.

فأبسط صور الغدر والخيانة وعدم الوفاء تمثل فى اسحق اوف يورك الرجل الذى لاعهد له ولاميثاق [٣].

وأبشع صور هذه الآفة عكسته لنا رواية أحمد وداود . خيانة اليهود للعرب خيانة اليهود للتاريخ، خيانة اليهود للأرض.

لقد خان داود وسارة صديقهما العربى أحمد، وداسا بأقدامهما كل ما كان بينهما من حياة مشتركة وعلاقات حميمة،وكانت الرصاصة فى ظهر العربى ليسقط فى بحر دمائه ولتلتهمه أمواج الغدر والخيانة.

حتى بعد موت أحمد، تبرأت سارة اليهودية من معرفته [٤]، لتسجل بذلك درجة عالية فى هذا المضمار، مضمار الخيانة والغدر.

وخان اليهود العرب، حينما استطاع اليهودى الغريب روزنبرج أن يسلخ جلودهم ويلبسهم ثياب الصهيونية، ليتنكروا لعرب فلسطين جميعاً، وليصبحوا

---

(١) النص الانجليزى ، ص ٣١١ ، الترجمة العربية ، ص ٤٧٨ .

(٢) النص الانجليزي ، ص ٢٥٣ ، الترجمة العربية ، ص ٣٨٤ .

(٣) النص الانجليزي ، ص ١٩١ ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٦ .

(٤) أحمد وداود ، ص ١٣٣ .

على استعداد تام لاغتيال أصحاب الأرض والفضل، وزملاء التاريخ واغتيال أجسادهم... وشرفهم.. وأعراضهم. [١]

٣ - النفاق :

وصفة النفاق على نحو ما فصلناها في هذه الدراسة لها مبرارتها ودوافعها عند بداية ظهورها في السلوك الإنساني . فقد تفرضها الظروف المحيطة فيلجأ المرء لها خوفاً وطمعاً، ولكن ربما تمادى الإنسان فيها حتى تصبح عادة وسمة مميزة لشخصيته، وهو الأمر الذى لمسناه من خلال تصوير النماذج الأدبية المختلفة للشخصية اليهودية .

وقد أوضح اسحق أوف يورك المبررات التى تدفع بنى جنسه للتلون والنفاق [٢] بينما توسعت رواية أحمد وداود فى إبراز تمكن هذه الخاصية من الشخصية اليهودية، وشمولها أفراد هذا الشعب على المستوى العامى والقيادى.

فالزعيم اليهودى بن جوريون يتلون تلون الحرباء وينافق بلا حياء[٣].

وداود يقطع آلاف الأميال، مسافراً إلى باريس، ليغير جلده [٤].

وفوق هذا وذاك، فإن التاريخ اليهودى يسجل لنا الدور البارز لهؤلاء القوم فى ظاهرة النفاق التى عاصرت عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتى حفلت بها كتب السيرة والتاريخ.

---

(١) أحمد وداود ، ص ١٠٩ .

(٢) النص الانجليزى ، ص ٩٣ ، الترجمة العربية ، ص ١٣٩ .

(٣) أحمد وداود ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤) أحمد وداود ، ص ٨٦ .

٤ – القسوة والارهاب :

وإذا كانت طلائع القسوة والإرهاب واضحة جلية فى العديد من النصوص اليهودية المقدسة[١]، فإن من يزعمون الانتساب لهذه النصوص قد واصلوا على مر التاريخ ارتكاب فظائعهم ومنحها مبررات دينية، حتى بات الإرهاب فى العرف اليهودى أمراً مقدساً.

وقد قدم لنا سكوت تمهيداً للسلوك اليهودى الإرهابى حينما أخبرنا أن قلب اليهودى لا يعرف الرحمة[٢]، بينما فصل فتحى غانم لنا وقائع السلوك اليهودى من خلال الموقف اليهودى تجاه العرب فى فلسطين .

وبين هذا وذاك، حاول علماء النفس تفسير الارتباط الوثيق بين الإرهاب وبين الشخصية اليهودية على نحو ما بينا فى الحديث عن هذه الصفة فى رواية أحمد وداود.

لقد عكست رواية أحمد وداود أفظع مظاهر الإرهاب اليهودى، ولم تكن مبتدعة فى ذلك، ولا يمكن لنا أن نتهمها بالتحامل، فاليهود أنفسهم يعترفون بالإرهاب اليهودى المقدس، بل لقد ألفوا فى ذلك كتباً أحصوا فيها بعض صور إرهابهم الحديث، الذى وضعت بذوره فى الكتب المقدسة، ونمت وترعرعت على مر العصور وبلغت أوجها وذروتها على أيدى المعاصرين من أبناء الشعب المختار[٣].

٥ – الخوف والجبن :

رسمت لنا رواية ايفانهو مشاهد رائعة لما يتمتع به اليهودى من صفة الخوف

---

(١) انظر على سبيل المثال : سفر التكوين ٣٤ : ٢٥ ـ ٢٨ ، سفر يشوع ٨ : ١٩ ـ ٢٩ ، ١٠ : ٢٦ ـ ٣١ ، ١٠ : ٤٢ وغيرها .

(٢) النص الانجليزى ، ص ١٠١ ، الترجمة العربية ، ص ١٥٣ .

(٣) انظر فى ذلك : ليفيا روكاخ ، ارهاب اليهود المقدس ، ترجمة : مصطفى درويش ، منشورات دار الكرمل ، صامد ، عمان ، ١٩٨٧ م .

القاتل منذ بداية ظهور شخصية اليهودى إسحق على مسرح الأحداث [١] وكيف تصبح مثل هذه السمة - عندما تزيد عن الحد الطبيعى - باعثا على الاستهزاء والسخرية من صاحبها.

كما قدم لنا سكوت فى بعض مشاهده تحليلاً لصفة الخوف التى لازمت اليهود فى تاريخهم وانعكاساتها على السلوك الفردى، وأشار كذلك إلى توارث هؤلاء القوم للجبن والخوف جيلاً بعد جيل [٢].

أما فتحى غانم، فلم يفته أن يعرض لهذه الصفة اليهودية من خلال أحداث روايته، وكيف أصبح اليهودى الخائف المذعور مضربًا للمثل وللتندر والتفكه.[٣]

وإصرار الكاتبين على وسم الشخصية اليهودية بهذه الصفة يؤكد لنا ثبوت هذه الصفة وتمكنها وملازمتها لليهودى، وتحولها إلى إحدى الثوابت فى الشخصية اليهودية .

٦ - سمات أخرى :

عرضت رواية سكوت ورواية أحمد وداود العديد من السمات الأخرى التى تميز الشخصية اليهودية كما صورها كاتباها .

فاليهودى ذو ضمير ميت أسود ملوث جعل أحقر الطبقات تأنف منه وترفض التعامل معه دون حذر واحتياط[٤].

ونتيجة موت الضمير لدى الفرد اليهودى، فإنه لا يأبه بسلوكه وما يترتب عليه. فلا مانع من استخدام شتى الوسائل للوقيعة بين الأفراد والأمم والشعوب.

(١) انظر : النص الانجليزى ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، الترجمة العربية ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) انظر : النص الانجليزى ، ص ١٨٩ ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٣ .

(٣) أحمد وداود ، ص ٤٤ ، ٤٨ ، ٨٨ ، ١١١ .

(٤) انظر : إيفانهو ، النص الانجليزى ، ص ٩٥ ، ١٠٢ ، الترجمة العربية ، ص ١٤٢ ، ١٥٥ .

وهذا بالفعل ماعكسته رواية أحمد وداود [١].

ولما كانت الشخصية اليهودية حسب مااتصفت به من سمات متأصلة فيها مصابة بما يسميه علماء النفس بذهان الاضطهاد ،فإن هذه الشخصية تميل الى المباهاة والمفاخرة وما ينتج عنها من إغراء جنسى، اشارت إليه رواية أحمد وداود فى بعض مواضعها [٢]، وفصلته روايات أخرى [٣] على نحو أوسع واشمل حتى أصبح " الإغراء اليهودى" سمة من سمات هذه الشخصية .

إن الميل إلى تضخيم الذات"قد أصاب الشخصية اليهودية على مستوى الأفراد ، وعلى مستوى الحكومات، على نحو ما نعاصر من أساليب اسرائيلية تستعرض قوتها وتزعم لنفسها ما ليس فيها .

كما اتسمت الشخصية اليهودية بميكافيلية صارخة ميزت سلوكها فى شتى الظروف والأحوال .

فكما سبق وأن أشرت، فإنه للوصول إلى الأرباح، اتبع اليهود أبشع صور الابتزاز والاحتيال مع الأمم والافراد . فالغاية- حب المال- تبرر الوسيلة.

ولإضعاف العرب وإشغالهم، لا مانع من استخدام اليهوديات لسلاح الإغراء الجسدى [٤]، وهو ما افاضت فى عرضه روايات الجاسوسية التى عالجت بدورها الشخصية اليهودية من منظور آخر .

وللوصول إلى تعكير صفو العلاقات العربية- اليهودية، لايتورع اليهودى

---

(١) انظر أحمد وداود ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) انظر أحمد وداود ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) انظر على سبيل المثال رواية احسان عبد القدوس ، لا تتركونى هنا وحدى .

(٤) أحمد وداود ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥

عن الاعتداء على مقدساته حتى يستغلها فى تحقيق أهدافه [١].

ميكافيلية واضحة، ميزت الشخصية اليهودية فى كثير من مشاهدها التى عرضتها لنا رواية سكوت ورواية فتحى غانم .

وكان نتيجة هذه السمات الرئيسية، أن اتسمت هذه الشخصية بصفات أخرى عديدة كالشك، فى الناس، بل وفى الله [٢]، والتنكر للآخرين، بل وللوطن وللرب وتلك سمة لها تاريخها وجذورها فى النفس اليهودية، على نحو ما عبر فتحى غانم.ويبدو أن ثوابت الشخصية اليهودية قد أصبحت أبرز من متغيراتها . فهى شخصية محددة الملامح لمن أراد أن يتعرف عليها، أما متغيراتها فيصعب أن نحصيها، إذ تملى الثوابت عليها خط سيرها .

فالصفات التى عرضنا لها آنفاً، تستلزم من اليهودى أن يستكين حين تكون الاستكانة واجبة، وأن يستأسد حين يتمكن من منابع القوة.

وتلزمه أيضا بالتلون والتغير. فهو على استعداد لأن يغير من سلوكه، بل أن يغير دينه إذا تطلب الأمر ذلك.

وقد القت سمات الشخصية اليهودية بظلالها على المجتمعات المحيطة بها فجاءت ردود الفعل على نحو ما بينتها لنا رواية سكوت ورواية فتحى غانم .

فالأوربى المسيحى، لم يستطع التخلص من صورة اليهودى التى رسمها الإنجيل فى أذهان أتباعه. فهم أولاد الأفاعى والخراف الضالة، التى حاربت المسيح وقتلته، وتمارس دورها الآن مع أتباع المسيح.

إن التيار العام الذى اتسمت به نظرة الأوربى المسيحى لليهودى لايخفى

---

(١) أحمد وداود ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) أحمد وداود ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

على أحد.فاليهود مكروهون ومضطهدون فى كل عصر، ولايشهد التاريخ الأوربى بغير ذلك.

ويمكننا أن نقول أنه قد أصبح الاضطهاد الاوربى المسيحى، والكراهية الأوربية المسيحية من ثوابت الموقف الأوربى تجاه اليهود، ولامانع أن تختلف درجات ذلك الموقف بين مد وجزر حسبما تمليه الظروف والملابسات، ليبقى اليهودى فى نظر المسيحى ملعوناً أينما حل، وحيثما ذهب.

وعلى الجانب الآخر، وجدنا النقيض من الجانب العربى الاسلامى. فالتسامح من قبل العرب والمسلمين هو الذى ميز تاريخ العلاقات بين اليهود والعرب. حتى فى أحلك اللحظات، حيث تبرز أنياب الغدر والخيانة من فم اليهود، فإن أحمد العربى المسلم، على استعداد لأن يمد يده مصافحاً لليهودى، متسامحاً معه، صافحاً عنه.

ففى الوقت الذى يرفض فيه سكوت أن يتمم روايته برباط يجمع بين ايفانهو المسيحى وربيكا اليهودية، يعرض فتحى غانم فى أكثر من موضع إمكانية الارتباط بين أحمد المسلم وسارة اليهودية، بل إن مشاعر أحمد ظلت على ثباتها، تحمل الحب تجاه سارة، على الرغم من خيانتها له ولقومه وبلده.

فالتباعد سمة الإتجاه الاوربى المسيحى، والتقارب سمة الإتجاه العربى الاسلامى، وهكذا عبرت الروايتان عن الواقع الذى سجله التاريخ دون زيف أو بهتان.

إن النظرة الدونية التى وجهها دائماً الأوربيون تجاه اليهود، كانت على النقيض تماماً فى الأوساط العربية، فلم يكن اليهود يوماً كلاباً أو رجساً أو دنساً فى نظر أحمد وأسرته، وأهل بلدته على نحو ما وجدنا جيرث راعى الخنازير أو

زعيم اللصوص، أو حتى الرهبان فى الأديرة ·

وإذا كانت رواية ايفانهو قد قدمت لناصورة اليهودى فى المجتمع الأوربى المسيحى فى العصور الوسطى، فإن رواية أحمد وداود قد قدمت لنا استمرارية هذه الصورة، فى مجتمع مغاير، وفى زمن مختلف، مما يؤكد مصداقية ما وصلنا اليه من نتائج·

* * *

وبعد أن قدمنا صورة اليهودى نتيجة تحليلنا لرواية ايفانهو للسير ولترسكوت ورواية أحمد وداود لفتحى غانم،يحق لنا أن نتساءل هنا عن الشخصية اليهودية وما إذا كانت شخصيته سوية، أم شخصية مضطربة غير طبيعية من ناحية علم النفس وما حدده من معايير للحكم على الشخصية ·

وقبل الإجابة على مثل هذا التساؤل، ينبغى لنا أن نحدد بإيجاز ملامح وأوصاف الشخصية السوية من وجهة نظر علم النفس·

من الصعب علينا أن نصف الشخصية السوية بكليتها ، وإنما يمكن لنا أن نصف نماذج سلوكية لشخص ما · وقد قدم لنا "مازلو" أوصافا مختصرة للشخصية السوية من خلال نظريته فى الدوافع الإنسانية، حيث قام ببحث شامل لمجموعة من الأشخاص الذين حققوا ذواتهم. من هذه السمات المميزة أن أصحابها لهم اتجاه واقعى وأنهم يتقبلون أنفسهم والآخرين والعالم الطبيعى كما هم، وأنهم على قدر كبير من التلقائية كما أنهم يتمركزون حول المشكلات لا حول أنفسهم بالإضافة إلى أنهم يتوحدون بالبشرية جمعاء. ولعل أهم سمات هذه الشخصية هى أنهم لا يخلطون بين الغاية والوسيلة [١].

---

(١) Maslow, A., Motivation and Personality, New York, Herper, 1954, p . 12.
نقلاً عن : سيد عبد الحميد مرسى، الشخصية السوية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٥، ص١٥-١٧ .

ومن سمات الشخصية السوية كذلك أن صاحبها يكون قادراً على إشباع حاجاته عن طريق السلوك الذى يتفق مع كل من معايير المجتمع ومطالب ضميره، كما أن الشعور بالإشباع يؤدى إلى حالة من السعادة والاكتفاء. وفى محاولة الإشباع، على صاحب الشخصية السوية أن ينتهج وسائل شرعية وقانونية تتفق مع الأخلاق والتقاليد [1].

فالشخصية تعتبر إذن سوية ومتزنة " إذا تكاملت جوانبها وانتظمت فى كيان نفسى متضامن لا تنهكه الصراعات التى قد تدب داخل هذا الكيان. أما إذا تعرضت الشخصية لاختلاف وعدم ائتلاف بين كافة مكوناتها، وتعرضت لصراعات موصولة. واحباطات متعددة، أدى هذا إلى سوء توافقها الشخصى والاجتماعى وبدت عليها مظاهر الاضطراب والشذوذ والانحراف" [2].

ووفقا لسمات الشخصية اليهودية على نحو ما عرضنا فى تحليل الروايتين، وأخذاً بما وصل إليه علماء النفس، يكمننا أن نقرر بشئ كبير من الاطمئنان أن الشخصية اليهودية من خلال نموذجى الدراسة - هى شخصية غير سوية وغير منتظمة على الإطلاق، وإنما هى تعكس كثيراً من الاضطراب والشذوذ والانحراف.

ولعلى بعد هذا العرض لبعض جوانب الشخصية اليهودية فى مجتمعين مختلفين وفى فترتين تاريخيتين متباينتين، وبعد استجلاء الثوابت المميزة لهذه الشخصية، وعلى ضوء نظريات علم النفس فيما يتعلق بدراسة الشخصية قد ساهمت فى مزيد من فهم الشخصية اليهودية حتى يمكن لنا أن نتعامل معها مهما اختلفت الظروف، ومهما امتد الزمان..

والله من وراء القصد..

---

(١) انظر ، سيد عبد الحميد مرسى ، المرجع السابق ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) مصطفى فهمى، الشخصية فى سوائها وانحرافها، مكتبة مصر، ١٩٨٧، ص ٧٣-٧٤ .

المصادر والمراجع

أولاً العربيـة :

ابراهيم على سالم	النفاق والمنافقون، دار الشعب، ١٩٧٠ .
احسان عبد القدوس	لا تتركونى هنا وحدى، مكتبة مصر، د .ت .
احمد قعوار	المرأة اليهودية فى فلسطين المحتلة، بيروت، ١٩٦٨ .
الكساندر ديما	مبادئ علم الأدب المقارن، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧ .
أمينة رشيد	«الأدب المقارن والدراسات المعاصرة لنظرية الأدب »، مجلة فصول، المجلد الثالث ، العدد الثالث، ابريل ـ مايو ـ يونيه ١٩٨٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة .
اولريش فايسشتاين	التأثير والتقليد، ترجمة مصطفى ماهر، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الثالث، ابريل ـ مايو ـ يونيه ١٩٨٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة .
حسان حتحوت	يوميات طبيب مصرى : فلسطين النكبة الأولى ١٩٤٨ ، كتاب الهلال ، العدد ٤٥٠ ، يونيه ١٩٨٨ .
حسن ظاظا	الشخصية الإسرائيلية، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٩٩٠.
حسين محمد فهيم	أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة (١٣٨)، الكويت، ١٩٨٩ .
حفنى قدرى	الإسرائيليون : من هم؟ دواسة نفسية، مكتبة مدبولى القاهرة، د .ت .
رشاد عبد الله الشامى	الشخصية اليهودية فى أدب إحسان عبد القدوس، كتاب الهلال (٤٩٦)، ابريل ١٩٩٢ .
رينيه ويليك	مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة (١١٠)، الكويت ، ١٩٨١ .
سامى الدروبى	علم الطباع : المدرسة الفرنسية ، دار المعارف ، ١٩٦١ .
سعيد عبدالحميد مرسى	الشخصية السوية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٩٨٥ .

سعيد علوش — مدارس الأدب المقارن : دراسة منهجية، المركز الثقافى العربى، المغرب، ١٩٨٧ .

سمير سرحان — مفهوم التأثير، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الثالث، ابريل - مايو - يونيه، ١٩٨٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة .

سهير القلماوى — فن الأدب (١) المحاكاة، دار الثقافة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٣.

صالح مرسى — رأفت الهجان، دار أبوللو، القاهرة، ١٩٩١ .

الطاهر أحمد مكى — الأدب المقارن : أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف، ١٩٨٧ .

طه ندا — الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥ .

عباس محمود عوض — مدخل إلى الأسس النفسية والفسيولوجية للسلوك، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٠ .

عبد الحكيم حسان — الأدب المقارن بين المفهومين الفرنسي والأمريكي، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الثالث، ابريل - مايو - يونيه ١٩٨٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

على جريشة — حرمان لا حقوق : حقوق الانسان فى ظل الإسلام، دراسة مقارنة، دار الإعتصام، القاهرة، ١٩٨٧ .

فان تيجم — الأدب المقارن، ترجمة سامى الدروبى، دار الفكر العربى، القاهرة، د . ت .

فتحى غانم — أحمد وداود، روايات الهلال، العدد ٤٨٦ يونيه ٨٩.

قاسم عبده قاسم — اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، دار الفكر للدراسات والتوزيع والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧ .

لى أرمان ، بيتر ا . بارسونز — وراثة وتطور السلوك، دار ماكجروهيل للنشر، ترجمة أحمد شوقى حسن رمزى على العدوى، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٨٣ .

ليفيا روكاخ — إرهاب اليهود المقدس، ترجمة مصطفى درويش، منشورات دار الكرمل، صادر، عمان، ١٩٨٧ .

مارتن لوثر — نفاق اليهود، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

مارك كوهن — المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية والعصور الوسطى، ترجمة نسرين مراد وسمير نقاش، مكتبة لقاء، تل أبيب، ١٩٨٧.

ماريوس فرانسوا جويار — الأدب المقارن، ترجمة محمد غلاب، ١٩٥٦ .

مصطفى فهمى — الشخصية فى سوائها وانحرافها، مكتبة مصر، ١٩٨٧

مكارم الغمرى — مؤثرات عربية وإسلامية فى الأدب الروسى، سلسلة عالم المعرفة (١٥٥)، الكويت ١٩٩١ .

محمد جلاء إدريس — قضايا الأدب المقارن فى إطار الدراسات السامية، المركز القومى للدراسات العربية والاسلامية (فجر)، الجيزة، ١٩٩٢ .

محمد الطويل — يهود فى برلمان مصر، دار الشعب، القاهرة، ١٩٨٨ .

محمد غنيمى هلال — دور الأدب المقارن فى توجيه دراسات الأدب العربى المعاصر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٥٦.

النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٥٧ .

الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٧٧ .

نجيب الكيلانى — حارة اليهود، المختار الاسلامى، ١٩٩٢ .

وحيد محمد عبد المجيد — اليهود العرب فى إسرائيل : احتمالات العودة واتجاهاتها، مركز الدراسات السياسية بالأهرام، القاهرة، ١٩٧٨ .

ولتر سكوت — ايفانهو، ترجمة مراد الزمر، مراجعة مصطفى حبيب، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٦..

ثانيا : الأجنبية :

Fisch, H., The Dual Image : The Figure of the Jew in English and American Literature, London, 1971.

Lilienthal, A., The Other Side of the Coim., New York, 1965.

Montagu, F., The Jew in the Literature of England, Philadelphia, 1939.

Patsai, R. (Ed.), The Complete Dairies of Theodor Herzl, Translated by Zohn, H., The Herzl Press - Thomas Yoseloff, 1960.

Scott, W., Ivanho, with Appendixes and Notes by Brayley, A., J., Longmans, London, 1964.

Tiger, L. & Shepher, J., Women in the Kibutz, New York, 1975.

كتب للمؤلف

١ - مذبحة المخيمات، دار الناصر، الرياض، ١٩٨٤.

٢ - قضايا الأدب المقارن فى إطار الدراسات السامية، المركز القومى للدراسات العربية والإسلامية، الجيزة، ١٩٩٢.

٣ - العقيدة : أصولها التاريخية وأسسها الإسلامية، المركز القومى للدراسات العربية والإسلامية، الجيزة، ١٩٩٢.

٤ - التأثير الاسلامى فى الفكر الدينى اليهودى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٢.

٥ - يهود الفلاشا، أصولهم ومعتقداتهم وعلاقاتهم بإسرائيل، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٣.

٦ - Arabic And Islamic Studies , Cairo , 1992 .

تحت الطبع

١ ـ حقوق الانسان فى التوراة والقرآن، دراسة مقارنة فى ضوء المواثيق الدولية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

٢ ـ القواعد الأساسية فى اللغة العبرية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

رقم الإيداع ٩٣/٧٩٨٧
I.S.B.N 977-5487-00-5
طبع بمطابع دار روتابرينت

الشخصية اليهودية







للدراسات و البحوث الانسانيه و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES